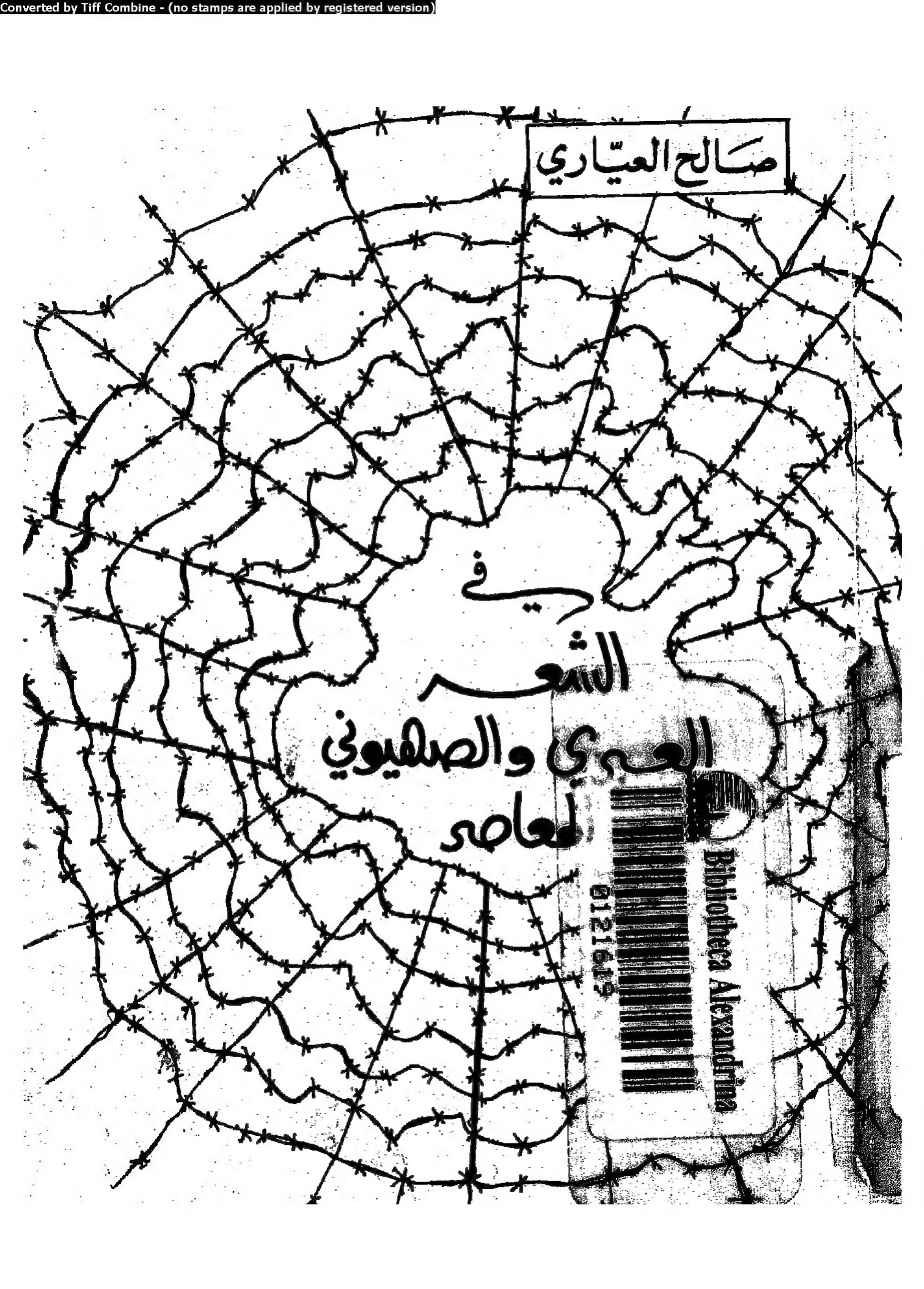

صالح العيّاري
في
الشعر
والصهيوني
Bibliotheca Alexandrina







دمشق ـــ اوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص. ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

في
الشعر
العبري والصهيوني
المعاصر

الطبعة الأولى
١٩٨٧

صالح العيّاري

في الشعر العبري والصهيوني المعاصر

الاهداء

إلى كل العرب الذي يعملون بالعقل والضمير
من أجل خير أمتهم نحو مصير عربي وإنساني
مشرق .

المؤلف



الويل لإسرائيل الصهيونية إن اتّحد العرب

المقدمة

ليست مصاعب الكتابة هي التي حالت دون طريقي في إنجاز هذا المبحث المتواضع ،وإنما في الواقع قلة المراجع التي لم تتوفر لي حول الأدب الإسرائيلي قديماً وحديثاً ، وبالتالي فإن هذه الدراسة لم تستطع أن تكون أكثر شمولية وتوسعاً نقدياً . لكن إيماننا وطموحنا الضئيل باتجاه هذا المبحث هو الذي دفع فينا روح المغامرة ثم الدخول إلى المواضيع التي تناولها الأدب الاسرائيلي المعاصر ، وبما أن الأدب يمثل عموماً السجل الصادق والواقعي لتاريخ الأمم

والشعوب عبر انحداراتها وتطورها وما تمثله من قيم الخير والجمال والشر ، فإن هذا المعنى أراد أن يبحث فيما جسدته الآداب الاسرائيلية حول هذا المضمار . ولعل من الظواهر الأسلحة التي اعتمد عليها الكيان الصهيوني لتمجيد الشخصية الصهيونية ودعمها ، تتمثل بالأدب وفنونه ، حيث كرس مضامينه في سبيل توجيه الذات اليهودية نحو التمايز والتطرف العنصري . ونحن سنحاول في هذه الدراسة كشف بعض سمات العنصرية والعرقية الذاتية التي صبغت معظم مضامين الأدب الصهيوني وقد استندنا لإعداد هذا الموضوع على نماذج من الشعر الاسرائيلي لكتاب وشعراء نشأت أغلبيتهم في ظل الكيان الصهيوني . ومن ناحية أخرى ولأجل إنصاف (الموضوعية النقدية) ، حاولنا استبعاد الانفعالية والنظرة الدونية في هذا المبحث آخذين بعين الاعتبار السقوط في اللاسامية التي انجرّ إليها العديد

من الكتّاب العرب سواء أكان ذلك دون قصد منهم أو غيره .

إن هذه الدراسة المتواضعة اقتصرت فقط على فن الشعر الذي أعطاه الكيان الصهيوني على أيدي رموزه البارزين من شعراء ما قبل وما بعد تأسيس دولة اسرائيل .

ومن جهتها حاولت هذه الدراسة التمييز بين نص عبري حاوٍ للعنصرية والعرقية ، ثم بين نص آخر غابت فيه العنصرية ، وكانت أقل حضوراً في مقابل وهج القصيدة النسبي وانفعالها الانساني . إن الأدب من حيث هو امتياز لمثل الخير والجمال العليا ، يمثل المرآة الصافية التي تعكس في صدق ووضوح الحالات النوعية الانسانية للأفراد والأمم . وها نحن نترك الآن هذه المرآة تعكس بحرية حال

الفردية والمجتمع الصهيوني ، كما كان يبدو في الأمس البعيد واليوم في منطقتنا العربية المحتلة .

إن من يريد أن يعرف عدوه معرفة عقلانية دقيقة ، عليه أن يتدرب وبصبر بليغ على استكناه ومعرفة طرائق الفكر والعمل عند هذا العدو . ويحاول هذا المرء قدر الإمكان ضبط العواطف والنزعات الأخلاقية التي تعترض سبيل معرفته هذه ، وذلك في سبيل كشف المكونات الظاهرية والباطنة في آلية الفكر والعمل عند العدو المعني .

لم يبقَ لهذه المقدمة كلام آخر تقوله سوى الرحيل إلى عالم الشعر الذي خلفه الشعراء الإسرائيليون وما حمله من قيم يهودية وصهيونية عنصرية .

المؤلف

توطئة حول الأدب العبري القديم

إن الصعاب التي تعترض أيّ باحث في شؤون الأدب العبري قديمه وحديثه ، لهي معقدة الثنايا والموضوعات ، لأن هذا الأدب المذكور الذي أطلقت عليه هذه التسمية لم يدون في الحقيقة في وطن بعينه ، وفي لغة بعينها ، فالآثار الفكرية والأدبية اليهودية كتبت في لغات متعددة وبلدان كثيرة ، إذ نجد مثلاً نصوصاً مكتوبة بالعبرية والييدية واللادينو ، وخاصة في اللغة العربية التي ألف بها اليهود أمهات كتبهم الفكرية الفلسفية والأدبية إبان تواجدهم في الأندلس زمن القرون الوسطى ، تحت راية الحضارة العربية الاسلامية ومجدها . كما

أن العديد من اليهود ألّفوا إبداعاتهم أيضاً في لغات عالمية حديثة كالانجليزية والألمانية والروسية والفرنسية وغيرها ... وفي هذا السياق نرى أن الأدب اليهودي القديم والحديث لم يكتب في لغة قومية واحدة ، بل قد كتب بلغات انسانية متنوعة ، وذلك قياساً إلى ظروفهم الخاصة التي كانت تقتضي هذه المسألة . وفي عصر النهضة العربية الاسلامية أتقن معظم المفكرين والأدباء اليهود فنون اللغة العربية وآدابها ، وبالأحرى فقد أسلم العديد منهم وآمنوا بالرسالة القرآنية ونبوة الرسول محمد ﷺ ، مما خول لهم صعود سلم العبقرية وكانوا يعاملون كعرب مسلمين عملاً بقول الآية الكريمة (لافرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى) ونتيجة لهذه العدالة الاسلامية السامية ، ظهر بين اليهود مفكرون كبارٌ مثل العالم (ماشاء الله) الفلكي والطبيب ، والرياضي (سهل الطبري) . وتأثر الفكر اليهودي آنذاك بفكر المعتزلة ، ولهذا السبب وسعت شقة الخلاف بين القرائين والربانيين ، وبعثت الحياة في الفكر اليهودي بكافة اتجاهاته ، وهذا موسى بن ميمون أحد الفلاسفة اليهود العرب يمثل نموذجاً لمرحلة الاخصاب الفكري في اللغة

العربية ، وذلك إضافة إلى الآداب اليهودية القديمة التي كتبوها بلغتهم العبرية الغابرة .

إن اليهود القدامى أعطوا للبشرية قصصاً وحكايات شعبية وملاحماً أسطورية ساهموا من خلالها بإغناء الآداب الانسانية العالمية وتراثها الفكري وبذلك استطاعوا أن يبرزوا مقدرتهم وطاقاتهم الابداعية الخلاقة عندما كانوا مواطنين آمنين بين الأمم التي عاشوا بينها وقبلوا الانسجام مع قيمها وآمنوا بشرائعها .

إن ينابيع الأدب اليهودي القديم متعددة المصادر والاتجاهات ، ولكن معظم هذا الأدب نجده في الحقيقة مستوحى من الدين اليهودي والحكايات الشعبية ، فنذكر على سبيل المثال قصة (روث) التي تحمل معنى الأخلاق الراقية التي كان يتمتع بها اليهودي المنتمي للأقوام التي آوته ، وقصة (روث) هذه تعتبر نموذجاً للمثل الأعلى في الخير الذي آمن به اليهودي . و(روث) هي الفتاة اليهودية التي استسلمت للرضا بالقناعة وعشقت التضحية وأحبت الانسان الذي تزوجته ،

ورافقته إلى المقام الذي استقر فيه . وبالرغم من الظروف الصعبة التي مرّ بها الاثنان حافظت روث على الوعد الذي قطعته على نفسها في الفناء الأبدي لأجل هذا الرجل الغريب . وبهذه العبارة نستخلص معنى الفضيلة في هذه القصة اليهودية القديمة كما جاءت في النص العبري القديم . ولكن هناك وجهاً آخر للأدب اليهودي السوداوي الذي كرس مفهوم الشر ، كقصة أستير وغيرها من القصص الشعبية الأخرى .

أما إذا تناولنا الشعر العبري القديم ثم قارناه بالشعر العربي في زمن صدارة الحضارة العربية الاسلامية وقارناهما من حيث القيمة الفنية والمواضيع ، نجد في الحقيقة أن حضارة الجزيرة العربية هي التي خلقت الشعرين ، والجزيرة تمثل في هذا المجال اللوحة الفنية الكبرى التي أخذ عنها الشعراء العرب والعبريون صور الحياة والجمال ، وإن اختلف الأدبان في شيء كما قال الدكتور فؤاد حسنين ، فإنما في العوامل التاريخية التي أثرت في الشعبين ، حيث كان الشاعر الجاهلي والشاعر اليهودي القديم يمثلان صوت القبيلة وضميرها ، إذ كانا

يتغنيان بانتصاراتها ويرثيان لانكساراتها ومحنها . ومن هذا الباب نفهم لفظة (شير) للدلالة على لفظة الشعر في اللغة العربية ، لذلك فإن الدارس لا يجد فروقاً كبيرة بين نص شاعر يهودي يكتب في العبرية ، وبين نص شاعر عربي قديم .
واستمر عطاء اليهود الأدبي على امتداد زمن الحضارة العربية الاسلامية حتى عهودها المتأخرة وظلوا على العموم ينهلون من محيط الثقافة والفكر العربيين ، ونشطت الحركة الأدبية اليهودية في كل من مصر والشام والأندلس وبلاد ما بين النهرين ، وقد دون اليهود معظم آثارهم النفيسة في اللغة العربية ، وما عدا ذلك فإن ماتركوه من آثار فنية وأدبية في اللغات الأخرى القديمة شيء لا يذكر . باستثناء بعض القصص والسير الذاتية الشعبية المكتوبة في العبرية ، ولكنها لم ترْقَ في الواقع إلى الآداب اليهودية التي كتبت بالعربية وإذا أردنا الحديث قليلاً عن اللغة العبرية القديمة ، فإننا نجدها في الواقع لهجة كنعانية أخذها اليهود عن الشعب الذي استضافهم (الكنعانيين) ، وبالتالي فإن الأدب اليهودي الذي وضعه اليهود بغير العربية ، بقي متأخراً ورهين لهجات أخرى لم تكن بمستوى حضارة اللغة

العربية ، هذه اللهجات التي لم تكن صالحة للظروف التي ألمت باليهود ، وبذلك أصبح اليهودي يعجز عن نطق أكثر أصوات اللغة العبرية كحروف الحلق والصفير والاطباق ، إضافة إلى قواعد النحو والصرف التي لم تعد وعلى مر تطور زمنهم ، تنسجم مع التكوينات الصوتية والإيقاعية الأساسية في اللغات الجديدة التي بات فيما بعد ينطقها اليهودي الاسباني أو الفرنسي أو الروسي . أما الآن فإذا أخذنا اللغة العبرية الحديثة تجاوزاً ، نجد فيها مزيجاً مركباً من آثار اللغات الأخرى (حيث أصبحت هذه اللغة العبرية الحديثة لغة تجاوزاً ، ففيها من السامية بعض المفردات ثم أبجديتها وحتى هذا القليل من الألفاظ العبرية لا تستطيع الأغلبية الساحقة لليهود المعاصرين النطق بها صحيحاً ، خاصة توجد حروف الحلق والجناس والصفير وغيرها)[1] وفيما يتعلق بجملة النحو والاعراب فإن ذلك يمثل مشكلة أساسية نظراً لأن اللغة العبرية القديمة قد انتهى زمن وجودها حوالي القرن الثاني قبل الميلاذ وهي لغة التوراه في العهد القديم ، وهذه الخاصية تنطبق تقريباً على

١ — راجع كتاب من الأدب العبري تأليف الدكتور فؤاد حسنين علي ، ص٢٢٤ .

اللغات واللهجات اليهودية الأخرى كالصقلبية واللادينو ، وهي جميعها لا تنتمي إلى اللغات السامية ولذلك فهي تعتبر من اللغات التي امتزجت مفرداتها بالانجليزية والألمانية وتطبعت بخصائص لغوية أخرى شرقية وغربية .

وهذه المشكلة قائمة بعمق في صلب اللغة العبرية الحديثة ، فنثرها أصبح منقطعاً عن النثر العبري القديم ، كما أن الشعر الذي بات يكتب بهذه اللغة الجديدة ، ليس إلاّ من قبيل محاولة جديدة لبعث لغة قومية يهودية جديدة لا علاقة لها بالماضي اليهودي البعيد .

ولكن هذا الطموح الذي خططت له اسرائيل تحت واجهة العنف واضطهاد لغة شعب آخر وحرمانه من أرضه وحقوقه الوطنية ، سوف يبقى هذا المشروع قيد المجهول ، لأن التأسيس لهذه اللغة الجديدة برعاية الكيان الصهيوني وإحياءه لنظرية قومية يهودية شوفينية ، لن يجدا تجانساً منطقياً في محيط الثقافة والحضارة العربيتين المتناقضتين مع طبيعة الكيان الصهيوني .

إن أي إنسان عاقل لا يمكن أن يرفض تطور لهجة أو لهجات مجتمع معين إذا كان هذا التطور لا يتضارب مع المصالح الثقافية الوطنية والقومية لهذا المجتمع المعين . لكن إذا كان إحياء لغة أو لهجة شعبية بواسطة العنف واضطهاد الآخر على حساب شوفينية هذه الثقافة ، فإن هذا السلوك هو ما يرفضه أي عقل إنساني معاصر . وإن هذا الأمر هو ما قامت به الصهيونية لأجل تثبيت يهود العالم في فلسطين .

إن دولة إسرائيل تخطىء كثيراً ، إذا ركنت فقط إلى التقنية التكنولوجية المعاصرة ، وتحديث الوجود الصهيوني عن طريق الصناعة الحربية . لأن الأمة التي تنهض بقوة السلاح والمعارك ، فإن انتصاراتها مهما كثرت لن تخلدها في التاريخ ، إذ أن الانتصار العسكري هو حادثة عارضة تذهب وتأتي . لقد خاضت الشعوب حروباً ومعارك انتصر البعض فيها ولكنها لم تخلدهم لأن ما يخلد الشعوب في الحقيقة هو فنونها وآدابها وعلومها وهذه الظواهر الحية هي التي تمثل المقياس الحقيقي لتطور الأمم . ومن هنا يتضح أن لغة الإحياء القومي اليهودي

الذي تخوضه اسرائيل محفوف في الواقع بالألغام الصهيونية الشائكة .

إن ما تنفذه اليوم الحركة الصهيونية من مظاهر للتحديث الاجتماعي ، سوف يبقى تحت هذه الألغام التي تزرعها وهي رافعة لغة الحضارة المعاصرة . وأخيراً نعود مرة أخرى إلى أن عطاء اليهود المهجرين وثقافتهم في فلسطين ، لن تستجيب في المنظور المستقبلي البعيد إلى كيانات المجتمع الصهيوني وعقدها العرقية التي سوف تنفجر فيما بينها وتؤدي إلى زوالها .

وفي خاتمة هذه التوطئة حول الأدب العبري القديم والإطلالة الموجزة على مستقبل تحديث اللغة العبرية من منظور الصهيونية ، نقدم لكم هذا الجدول الاحصائي لعدد اليهود ثم اللغات التي كانوا يتكلمون بها فيما بين ١٩٠٥ ـــ ١٩٣٨[٢] .

---

٢ ـــ الجدول مأخوذ عن كتاب في الأدب العبري ، د . فؤاد حسنين علي .

الجدول بالأرقام

	عام ١٩٠٥	النسبة المئوية	عام ١٩٣٨	النسبة المئوية
اليديش	٧٠٠٠٠٠٠	٦٠ر٦	٦٨٠٠٠٠٠	٤٠ر٧
إنجليزية	١٠٠٠٠٠٠	٩ر٥	٤٢٠٠٠٠٠	٢٥ر١
بولندية	٢٠٠٠٠٠	١ر٨	١٠٠٠٠٠٠	٦ر٠
لغات صقلبية	١٠٠٠٠٠	٠ر٩	٣٠٠٠٠٠	١ر٨
ألمانية	١٢٥٠٠٠٠	١٠ر٠	٦٠٠٠٠٠	٣ر٦
عربية وتركية	٢٥٠٠٠٠	٢ر٢	٦٠٠٠٠٠	٣ر٦
عبرية	٢٠٠٠٠	٠ر٢	٥٠٠٠٠٠	٣
مجرية	٦٠٠٠٠	٠ر٢	٤٠٠٠٠٠	٢ر٤
إسبانية	٣٥٠٠٠٠	٣ر٠	٣٠٠٠٠٠	١ر٨
فرنسية	١٥٠٠٠٠	١ر٣	٣٠٠٠٠٠	١ر٨
هولندية	١١٠٠٠٠	٠ر٩	١٢٥٠٠٠	٠ر٧
إيطالية	٤٠٠٠٠	٠ر٣	٥٠٠٠٠	٠ر٣
لغات أخرى	٢٨٠٠٠٠	٢ر٤	١٤٢٠٠٠	٠ر٨
المجموع	١١٥٥٠٠٠٠		١٦٧١٧٠٠٠	

الشعر الاسرائيلي المعاصر
ومواكبة الحركة الصهيونية

في تأسيس الحركة الصهيونية

لاشك في أننا ندرك بالبداهية معنى المقولة التالية : (لا شيء يمكن أن ينمو في الفراغ) ، وهذا المعنى هو ما نريد إسقاطه منذ الوهلة الأولى على وجود الحركة الصهيونية وزمن ظهورها ، ومن ثم الحديث عن العوامل الأساسية المساهمة على كافة المستويات السياسية والفكرية والثقافية والعقائدية التي مهدت لنموّها في الأرض العربية المحتلة . وإذا كانت السياسة أو الإيديولوجية تسبق عادة الأدب والفن وتؤثر في مجريهما ، فإن الأدب أو الفن يمكن أن يسبقا السياسة فيمهدا لظهورها ويرافقا تشكلها ، وهذا ما حصل مع الحركة الصهيونية التي

مهد الأدب لنشوئها ، وهناك في الواقع أسماء أدبية يهودية وصهيونية تجسد هذا المسار الذي سنعرض له بعد قليل .

بدأت القصة الكاملة لظهور الحركة الصهيونية السياسية والدينية مع مرحلة القوميات الأوربية في القرن التاسع عشر ، وتتمثل نزعة الإحياء القومي لليهود على يد الرواد الصهاينة والأوربيين كما يلي :

— تهجير اليهود والرأسمال اليهودي خارج أوروبا ، وذلك لأجل خدمة هدفين رئيسيين :

١ — نفي الرأسمال اليهودي عن القارة الأوربية ، وهو الذي بات يشكل تنافساً حاداً ضد نمو الرأسماليات الغربية وتطورها .

٢ — خلق قواعد رأسمالية في ماوراء البحار عن طريق الحركة الصهيونية وإحياء فكرة الوطن القومي لليهود .

وهكذا جاءت فكرة نفي الرأسمال اليهودي المُنَافس

وتهجير اليهود خارج القارة ، كخطة استعمارية لتخليص أوروبا من عقدة الذنب تجاه اليهود بدءاً من الاضطهاد المسيحي إلى النازية والفاشية الأوربية التي أبادت الآلاف من اليهود الأوربيين . وقد وضعت هذه الفكرة تحت هوية : (عشاق صهيون هيا لقد حان أوان التوجّه إلى الأرض الموعودة) .

وهذه هي بعض الخيوط الأساسية لمسألة الحركة الصهيونية السياسية :

أولاً : جاء اليهود بأعداد قليلة إلى فلسطين ، إذ كانوا يأتون إلى المناطق المقدسة لأجل الحج كغيرهم من المسيحيين ، وبالفعل لم تقع هناك مشاكل بين العرب واليهوذ ، بل على العكس من ذلك فقد كان سكان فلسطين يقدمون لهم كافة المساعدات والمأوى والأخوة . وإن البقاء الذي شمل البعض منهم كان لسبب التمسك بطقوسهم الدينية . لكن متى بدأت عقدة المشاكل اليهودية في نظر الحركة الصهيونية السياسية ؟

بدأت المسألة اليهودية ، ثم البحث في الوطن القومي لليهود عندما ظهر كتاب تيودور هرتزل (الدولة اليهودية) عام

١٨٩٤ الذي شكل النتيجة الموضوعية لنشوء الصهيونية السياسية ، وبهذا الصدد يمكن تلخيص نظرية الدولة اليهودية بأشكال رئيسية حددت الملامح العضوية لهذه الحركة الاستعمارية ، وأول هذه الأشكال أن هرتزل يعتبر اليهودية شيئاً آخر غير النزعة الدينية ، بل إنها تمثل هوية شعب . وقد استمد هذه الرؤية من إيديولوجية القومية العنصرية للقرن التاسع عشر .

ثانياً : يدعي هرتزل أن الشعب اليهودي المشتت في كل مكان ليس متجانساً مع الشعوب التي يعيش معها ، وهو لن يتجانس أبداً في محيط المجتمعات التي هاجر إليها .

ثالثاً : يجب تحديد وطن قومي لليهود يجمع شملهم ، علماً بأن هرتزل كان في تلك الفترة مستعداً لقبول أية أرض تمنح كوطن قومي لليهود غير فلسطين ، وعلى سبيل المثال طرحت الأرجنتين ثم أوغندا وأستراليا كأرض ممنوحة لهذا الوطن القومي اليهودي . لكن أصدقاء هرتزل فضلوا أن تكون فلسطين الوطن القومي لليهود ، لأجل تمرير فكرة المشروع الصهيوني الاستعماري

بحجـة الاعتبـارات المقدسـة والحـق الدينـي المشـروع في فلسطين . وانطلاقـاً من هذه الدعـوة أصبـحت المسألـة الصهيونية متعلقة ببناء دولة يهودية ، وكان هذا يعني إحداث سلطة استعمارية للنفوذ في المنطقة العربية ، علماً بأن أعداد اليهود المقيمين في فلسطين التي تم فيها مشروع الدولة اليهودية والوطن القومي لليهود ، كانت أعداداً ضئيلةً إذ لم يكن يوجد سنة ١٨٥٠ سوى ١٥٠٠٠ يهودي مقابل ٥٠٠٠٠٠ مواطن عربي فلسطيني[٣] لكن الأعداد بدأت تتكاثر حينما تم بالفعل إعلان الدولة اليهودية الاسرائيلية والقيام باحتلال فلسطين بقوة السلاح وبهذه الخطوات انتقلت الصهيونية من مرحلة الإحياء القومي الديني إلى مرحلة الصهيونية السياسية . ونحن نلمس أن هذا الاستيطان الذي تم بالقوة في الأرض العربية المحتلة قد لاقى فشلاً ذريعاً ، فمن الثلاثة عشر مليون يهودي الموزعين في العالم استقر في فلسطين ثلاثة ملايين يهودي فقط . وإن هذه الحالـة شكـلت ضربـة حادة للاستراتيجيـة الصهيونيـة ،

---

٣ — عن محاورة لروجيه غارودي حول الصهيونية السياسية أجرتها معه صحيفة تشرين ١٩٨٤ .

وفضحت مخططاتها العدوانية وبالتالي فإن مجمل مظاهر النشاط والمعرفة التي سخرتها لخدمة أغراضها التوسعية قد منيت أيضاً بالخيبة ، ووقعت في الفخ الاستعماري . وبعد هذه المقدمة الموجزة حول نشوء الصهيونية السياسية ، سنحاول أن نبحث في النزعة العنصرية التي شكلت حيزاً هاماً في النشاط الشعري الصهيوني المعاصر .

شاؤل تشيرنيخوفسكي
ومناحيم نحمان ياليك
بين الدعوة للحركة الصهيونية والتشبث بروح الشعر

١ ـ شاؤل تشيرنخوفسكي

سنبحث في هذا الباب المتواضع عن أهم شاعرين يهوديين ، جعلت منهما الحركة الصهيونية أحد الرموز الأدبية الهامة في تاريخ الأدب الصهيوني المعاصر ، واستغلت شعرهما لدعم النظرية الصهيونية ، وقد تزامن شعر كل من تشيرنيخوفسكي وبياليك مع البروتوكلات والتحركات التي قامت بها التجمعات الصهيونية لتكوين الدولة الاسرائيلية ، إضافة إلى المؤتمرات والندوات الخاصة التي كرست للمسألة اليهودية منها مثلاً قضية دريفوس وبعض القضايا الأخرى التي تنتمي إلى أحباء صهيون ، هذه الجمعية التي نشأت في أوديسا وانعقد أول مؤتمر لها سنة ١٨٨٤ وكان قيامها رد فعل لصدور

(قوانين أيار سنة ١٨٨٢) الخاصة بفرض قيود على نشاط الأقلية اليهودية في روسيا ، أي أن هذه المنظمة كانت ثمرة سلسلة من حوادث الحقد اليهودي واللاسامية الأممية وكانت قد تغذت إلى جانب الغذاء الفكري التقليدي بكتابات رواد الصهيونية الأوائل مثل الحاخام اليهوذا القلعي والحاخام تسفي هيرش كاليشر والمفكر اليهودي الألماني الصهيوني موسى هيس . وكانت جماعة أحباء صهيون مجموعة من الأدباء والكتاب والمفكرين اليهود وفي مقدمتهم الطبيب والأديب الروسي الدكتور ليوبينسكر والتلمودي الأديب موسى ليلنبلوم وزميله اشرجيرزنبرج الذي كان يوقع مقالاته باسم (احاد هاعام) المربي البارز وفيلسوف الحركة الصهيونية . وإن هذه العصبة ساهمت إسهاماً كبيراً في تأسيس الكيان الصهيوني .

ويأتي شاؤل تشيرنيخوفسكي في مرتبة بارزة حيث كرس معظم نشاطه الشعري لتحريض يهود العالم لأجل العودة إلى فلسطين ثم بناء الوطن القومي . يعتبر شاؤل تشيرنيخوفسكي من أهم الشعراء اليهود وقد بدأ كتابة أشعاره بالروسية وبعد أن أتقن اللغة العبرية أصبح يدون بها أشعاره وقصصه الأدبية في روسيا

وألمانيا ومن الموضوعات التي أهتم بها تشيرنيخوفسكي وتناولها في أدبه تخليد أعمال اليهود الذين تلقوا اضطهاداً مراً في العصور الوسطى والمتأخرة في زمن الفاشية والنازية بصفة خاصة . كان تشيرنيخوفسكي مثل مناحيم بياليك وسلمان شنعور متأثراً بالبيئة اليهودية وتراثها الديني والثقافي الشعبي ، كما أن شعره تأثر أيضاً بالمعتقلات النازية ، فاستمد منها جزءاً من انتاجه الفني ، إضافة إلى الغنائية التي كرسها للطبيعة فمجدها في شعره وميز العلاقة بينها وبين الانسان . ونحن هنا لانستطيع أن نقدم نماذج من أشعاره نظراً لافتقارنا إلى نصوصه الشعرية ومن جهة أخرى فإن ما تمتع به تشيرنيخوفسكي من أهمية شعرية عالية السمعة جعله يحتفظ بلقب شاعر اليهودية المتميز والقاص المبدع ، ولكن هذه السمعة لم تزد من قيمته الانسانية إذ كان تأثير هرتزل قوياً عليه مما جعله يستجيب إلى معظم طروحاته الصهيونية ويتبنى دعوته في العودة إلى أرض الميعاد .

يعتبر تشيرنيخوفسكي أول شاعر عبري حديث نظم الشعر المقفى ومن الموضوعات اليهودية التي دعا إليها تمسك

اليهودي بدينه وقوميته العرقية ثم العمل لغاية حريته وانعتاقه ، وفي نظره فإن هذا الانعتاق لن يتحقق إلا بواسطة الصراع من أجل اليهودية وأهدافها ، ولعل هذه الدعوة وجدت قبولها وتطابقها مع الأفكار الصهيونية التي ولدت في عصره . وتجلى التعبير عن هذا الإيمان الصهيوني في عدة قصائد له مثل (على هشمش) أي فوق الشمس وكذلك (كريم) (وعلى هدم) أي على الدم . إلا أننا من جهة ثانية لا ننكر بعض موضوعاته الشعرية وقيمتها الابداعية فنجد اتجاهاً شعرياً آخر كان قد تناوله في موضوعاته : فهو القائل بأن تحرير الانسان لن يأتي فقط عن طريق المثل العليا بل بواسطة الفن والجمال وتقديسه يكمن تحرير الانسان الحقيقي وقصيدة (حزيونوت نبي هسكر) التي نظمها خلال دراسته في جامعة هيدلبرج . تتضمن هذا الطموح لتحقيق المثل الأعلى الجمالي وتقديس الفن وبغض النظر عن عبقرية تشيرنيخوفسكي وموهبته الأدبية فإنه لم يستطع أن يتفهم الحقيقة العليا للصهيونية ، مما جعل تمسكه المفرط بيهوديته يسقطه في عنصريتها وعدائيتها ولهذا فهو مصنف كشاعر وأديب نصير للحركة الصهيونية وفي هذا

السياق نشير إلى أن تشيرنيخوفسكي يختلف في هذا الموضوع عن بياليك الذي لم يتحمس كثيراً لدعوة هرتزل بل إنه قضى جل وقته وحياته في كتابة الشعر . يضاف إلى ذلك اختلافهما حول الكثير من المواقف الفكرية والسياسية والشعرية والفنية .

٢ ــ مناحيم ناحمان بياليك (١٨٧٣ ــ ١٩٣٤)

ليس من السهل التعرض بالنقد المستفيض لمناحيم ناحمان بياليك شاعر العبرية الأول في هذه الدراسة المتواضعة ، وذلك نظراً لاختلاف وجهات النظر التي تناولته بالنقد والدراسة ، فثمة فريق من النقاد الصهاينة كان يرى في بياليك الشاعر الذي ماانفك صهيونياً في كل بيت شعري كتبه . لكن ثمة نقاداً آخرين لم يروا فيه سوى مجرد شاعر عاش لأجل يهوديته الدينية الذاتية متعبداً عالم الوحدة والخوف من العالم ، إنه يعد في نظرهم الشاعر اليهودي الذي خذل الجميع وعاش لذاته .

ولد بياليك عام ١٨٧٣ في إحدى قرى أوكرانيا ، حيث قضى طفولته وسنوات مراهقته بين أحضان طبيعتها الجميلة . ثم انتقل إلى أوديسا في الثامنة من عمره ، فأقام فيها حتى عام ١٩٢١ ثمّ غادرها إلى ألمانيا ، وارتحل إلى فلسطين عام ١٩٢٤ ومات في فيينا سنة ١٩٣٤ ودفن في فلسطين . وقد امتدت حياته الشعرية النشيطة إلى عشرين عاماً بين عامي ١٨٩٢ و ١٩١١ ، بينما حفلت مرحلته الفلسطينية بالنشاط الثقافي ، إذ نجده قد كرس معظم جهوده لنشر الثقافة واللغة العبرية .

ولد بياليك في فترة كان فيها التجمع اليهودي في روسيا يمر بأخطر مراحله وذلك حينما اتبعت السلطة القيصرية سياسة عزل اليهود في أماكن تجمع خاصة بهم عرفت تحت اسم (حظيرة التوطن اليهودي) . وكانت الأسباب الوجيهة في اتباع هذه السياسة ، مقترنة مع بداية تكون طبقة التجار الروس الذين شعروا بوطأة المنافسة الشديدة التي حملها إليهم التجار اليهود الذين كانوا يشكلون في تلك الفترة طبقة تجارية واسعة

النفوذ صعبة المراس ، بل إن هذه الطبقة كانت تشكل خطراً على مصالح الطبقة التجارية المحلية الروسية ، إضافة إلى أن أغلبية الجماهير الأوكرانية والبيبلوروسية من الفلاحين كانت تحمل الحقد والكراهية للأقلية اليهودية المرابية ، نظراً لما كانت تقوم به من أعمال السمسرة والتجارة والربى وبيع الخمور . ومع تغير الظروف الاجتماعية في أواسط القرن التاسع عشر التي أدت إلى إلغاء القنانة وتسريع عملية التصنيع الكثيف تم انطلاق اليهود من حظيرة التوطن الخاصة إلى كافة أنحاء روسيا بحثاً عن مجالات العمل[4] . ولقد أدت هذه الاصلاحات إلى ازدياد المشاكل وتعقدها في الامبراطورية الروسية التي قفزت فجأة من عالم الاقطاع إلى عالم المدن المكتظ بجماهير الفلاحين والعمال الذين ازدادت حالاتهم تردياً أكثر مما كانت عليه في عهد القنانة . وأمام تفاقم الأوضاع الاقتصادية الروسية تم انتشار الحركة الثورية المعادية لنظام الاستغلال وقد أدى كل ذلك إلى لجوء السلطة القيصرية إلى فرض سلسلة من القوانين قيدت انطلاقة اليهود ، تلك الانطلاقة التي كان مقدراً لها أن

٤ — مجلة الأقلام العراقية العدد التاسع ، حزيران عام ١٩٧٩ .

ننتهي باندماجهم التام في المجتمع الذي عاشوا فيه .

إن هذه التغيرات وما صاحبها من هجمات دموية على مراكز التجمع اليهودي الشعبي ، دبرت لها في الواقع السلطة القيصرية ، بغية إلحاق التردّي الإقتصادي باليهود وحدهم . ولم يتأثر نحمان بياليك تأثراً مباشراً بالتقهقر والتداعي اللذين أصابا الحياة اليهودية وخاصة منها حياة الجماهير الشعبية ، ذلك لأنه كان ينتمي إلى الطبقة البرجوازية المتوسطة التي بقيت في ذلك الوقت محتفظة بامتيازاتها . وكان بياليك في السابعة حين مات أبوه ، وبعد هذه الواقعة الأليمة عهدت به أمه إلى جده الذي تصفه المصادر الصهيونية بالثراء المادي وبالتدين المبالغ فيه . وفي هذا الجو الديني اليهودي الرتيب الذي شمل بيت الجد ، نمت وتأثرت شخصية بياليك بالنزوع التوراتي والتلمودي الحاد ، وحين جاء اليوم الذي غادر فيه بيت جده ، كان أشبه بشبح خارج من بطون كتب التوراه والتلمود والنصوص الدينية الأخرى المختلفة[٥] وقد كان السلاح

٥ ــ نفس المصدر ص ٨٦ .

الثمين الذي حصل عليه من بيت الجد ، هو إجادته وفهمه العميق للغة العبرية .

توجه بياليك بعد خروجه من بيت الطاعة الأبوية إلى أوديسا التي كانت تشكل مركز اليهود الثقافي ، وخلال لقاءاته الأدبية التي سرعان ماإندمج فيها تعرف على المفكر والأديب اليهودي آحاد عاهام الذي اشتهر بزعامته للحركة الصهيونية الثقافية ذات النزعة المثالية الروحية وإن هذه المدرسة العاهامية ، كانت تقوم أساساً على تبني الدعوة إلى التمسك بالثقافة الدينية اليهودية كثقافة روحية تساعد على حماية الفرد اليهودي من أخطار النزعات الفكرية الأوربية وطرائقها المادية وخلفياتها اللادينية . وجد بياليك في شخصية آحاد عاهام الفكرية والثقافية اليهودية ، الخصال التي كان يحلم بها كما وجد فيها عالمه الروحي الوحيد الذي يشده إلى أجواء أوديسا الحافل بالاتجاهات الفكرية الصاخبة والمتضاربة ، كما أن آحاد عاهام نفسه وجد في بياليك شخصية فذة وروحاً مشبعة بالتراث الديني اليهودي ، وألفاه يتمتع بطاقة أدبية متميزة وأحد اليهود القلائل الذين يكتبون الشعر باللغة

العبرية ، علماً بأن معظم اليهود الذين يحيطون بالمناخات الثقافية اليهودية الخاصة ، كانوا يتكلمون لغات ركيكة .كاليبدية والصقلبية . وقد ولد نجم الشاعر في أوديسا وذاع صيته الشعري في الأوساط الأدبية الروسية واليهودية وأصبح الشاعر اليهودي الذي نال المرتبة الأولى بين الشعراء اليهود العبريين في القرن العشرين . وفي هذه المقالة سنتحدث عن أهم الصفات في شعره ومن ثم نبين إلى أي مدى استطاع بياليك أن يخدم الصهيونية السياسية من خلال أشعاره .

الرومانسية الشعرية
والذاتية اليهودية المهزومة في شعر بياليك

لعله من المفيد أن ندخل مباشرة إلى عالم بياليك الشعري في فترته الأولى المبكرة التي اتسمت في أوائل التسعينيات من القرن التاسع عشر بالرومانسية الذاتية ، وقد تحدد مسارها الفني بموضوعين أساسيين :

أولاً : الموضوعات الشعرية الذاتية الخالصة .

ثانياً : الموضوعات التي تناول فيها التراث اليهودي الديني مؤكداً من خلال روح غنائية وأسلوبية شعرية شفافة على اليهودي المهزوم في عصر الصراعات المادية التي عصفت بأبناء شعبه وذهبت بهم إلى مزيد من الغربة والشتات . وقع بياليك تحت تأثير التيارات الأدبية المختلفة الأساليب ، وكانت الحركة

الرومانسية في فترته الأولى المبكرة هي الحركة السائدة بنفوذها الرومانتيكي ، وفي عالم أوديسا الثقافي والفكري لم ينقطع بيالك عن شعوره الدائم بالحنين إلى قريته المتواضعة النائمة بين أحضان الطبيعة الروسية الحالمة ، أنه الحنين الذي تلده الرومانسية مشبعاً بأصوات الغناء وشفافية الصورة التي تستلهم وجودها من ينابيع الذكرى وديمومة المكان .

«لي حديقة ولي بئر
يتدلى فوق البئر جردل
كل سبت تأتي عزيزتي
تشرب ماءاً صافياً من إبريقي
صمتاً ـــ فالعالم كله هناك ينام» .

كان شعر بياليك في مرحلته الرومانسية يدور حول البيئة الروسية ومناخاتها الجميلة ، ولم يقتصر شعره على مناظر الطبيعة الخضراء فحسب بل إنه عرض أيضاً للصحراء رمز السبي . وإذا كانت هذه المرحلة الشعرية الرومانسية المبكرة قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اتسمت بالذاتية المثالية ، فإنها وبالرغم من هذا الطابع ، لم تخلُ من بعض الموضوعات التي تناولت مشاكل اليهود وما تلقوه من اضطهاد ما بعد مرحلة الاصلاح القيصري في روسيا ، وإن قصيدته (آخر أموات الصحراء) دليل يؤشر على هذا المنحى :

«إنني أعرف قدر اسرائيل
فلسوف تقهر الأمة المتعبة العمالقة» .

قام بياليك في أوديسا واتصل بتيـاراتها الثقافيـة والفكرية ، مما أتاح للشاعر أن يوسع معرفته الأدبية ، إذ تعرّف عن كثب مجمل الاتجاهات السياسية والإديولوجية ، وخلال هذه الفترة من التواصل الثقافي والسياسي — الفكري ، استطاع بياليك أن يتخلى عن رومانسيته الطبيعية ، شاقاً طريقاً شعرياً آخر صقلته ثقافته ومعرفته الجديدة ، مطوراً بذلك ومعمقاً ثقافته الدينية التوراتية التي يؤمن بها إيماناً مطلقاً . وحول هذه النقطة نلفت انتباه القراء ، فالنزعة الدينية التوراتية والتلمودية التي ينتمي إليها العديد من الأدباء والمفكرين

اليهود ، كانت منـذ البدايـة تصب في اتجاه متعـارض مع الطروحات الصهيونية السياسية الصاعدة في تلك المرحلـة بزعامة هرتزل ، وبهذا الصدد فإن بياليك نفسه لم يكـن متحمساً لمثل هذه الدعوة ، باستثناء تحمسه الديني في جانب واحد للمسألة ، هذا الجانب الديني كان بياليك يفهمـه بطريقته المعرفية الشعرية الخاصة ، مع العلم أن الطليعة اليهودية المسيسة والانتليجنتزيا العبرية في أوديسا كانت تبهرها في ذلك الوقت إغـراءات الصهيونيـة السياسيـة ، وانـتشار الأفكـار العلمانية ، مما جعلهم يهجرون المدارس الدينيـة والكنـائس اليهودية ، وها هو ذا بياليك يصف في هذه الأبيات ضعف الروابط الدينية بين اليهود :

« ياجدران بيوت العلم ، ياجدران البيوت المقدسة
أيتها التي تؤوين الروح العظيمة
ياملجأ الأمة الأبدية
لماذا أنت صامتة وبائسة
هل تحلمين بالأيام الماضية

أم تبكين على الذين يهجرونك يوماً بعد يوم .
لقد حملتهم الريح بعيداً
وليس من أحد غيري » .

لقد أخذت الريح معها طلاب الكنيس والمدارس التلمودية ، لتحط بهم بين شتى المذاهب الفكرية والاتجاهات الفلسفية ، وأخيراً وجد بياليك نفسه أسيراً بين تيارين متباينين في الفكر والممارسة ، فمن جهة هناك دعاة الصهيونية الدينية والسياسية اليهود ، ومن جهة أخرى يوجد قطب الثوريين الماركسيين اليهود الذي كانوا يصرخون في وجوه الصهاينة : لكم آحاد عاهام ولنا غوركي . وبحكم التربية الدينية اليهودية التي تلقاها بياليك منذ نعومة أظفاره ، تنكر بياليك للنظريات التقدمية الماركسية ، كما أنه من ناحية أخرى كان مرتاباً من طروحات الحركة الصهيونية ودعاتها العلمانيين ، ونضيف إلى هذين التناقضين بوهيمية الشاعر المفرطة ، وهذه البوهيمية شكلت عنده في الحقيقة شعوراً دائماً بالعزلة ، ثم الخوف والريبة من الآخرين ، ومن جرّاء هذه الأسباب بقي بياليك

يتأرجح بين هذين الاتجاهين المذكورين ، وبالتالي فلا هو استطاع تبني دعوة الصهيونية السياسية ولا هو اقتدر على التصدي للتجمعات الثورية اليهودية المتصاعدة بين جماعات الشتات . وأمام كل هذه العواصف اليهودية بقي بياليك مخلصاً لهواجسه الفردية وأميناً لشكوكه حول الكثير من القضايا . لقد كان متمسكاً فقط بتعاليم الديانة اليهودية المثالية ومتشبثاً حتى الموت بقدسية الشعر ، حيث نلاحظ ذلك في قصيدته (في المكتبة) إذ ثمة فيها إحساس عارم بالقلق ومعايشة فعلية لتجسيده ، وهناك أيضاً مشاعر أخرى ممزقة بين عالم الأفكار الثورية والليبرالية التي باتت تجرف في طريقها آلاف اليهود من شباب أوديسا ثم شعوره المزدوج بروح دينية مثالية وبوهيمية غامضة متمردة .

إذن هاهو الشاعر بياليك يندب شباب المدرسة التوراتية والتلمودية وهم يتخلون على مرآى من عينيه عن الكتب المقدسة وقد أصبحت جدران المدارس خالية لا أحد يؤمها لطلب المعرفة الربانية :

« متكئاً إلى الجدار ، والمدرسة خالية

منتظراً هناك إلى النهاية
شفتاي ترتعشان تطلبان الصلاة
الكتب التي تحتضنها المكتبة
كشموع لعيني ومستقبلي
تفزعني وأنا في أوج شبابي
أمامي على المنضدة
يربض المفتاح النفطي الأصفر ذو الفتيلة القاتمة
والمكتبة قد أكلت ما بداخلها الفئران» .

ويرافق هذا الخوف روح بياليك دون أن يدرك كيف يسيطر عليه هذا الخوف المترتب على إنقاذ الشخصية الدينية اليهودية المثالية التي هبت عليها الكوارث ورياح التغيير من كل صوب . إذن كيف لبياليك أن لا يتصدى لهذه الكوارث ، وهو الذي تلقى خلاصة الدين اليهودي ونشأ على تعاليمه :

«العواصف العابثة الغاضبة
تحطم المصاريع والأقفال الحديدية
شياطين الأرض تصرخ خلف الجدران

«الحصون تبدو مدمرة
والروح القدس غادر مكانه» .

لكن مع تطور الأحداث وفي خضم المتغيرات الاجتماعية والسياسية الحادة التي عايشها بياليك في أوديسا ، يقول بعض دارسي آثاره الشعرية وسيرته الشخصية أنه حاول مراراً أن ينتزع نفسه من قبضة المفاهيم الدينية اليهودية المثالية ، غير أن هذه المحاولة بقيت مرتبكة وسرعان ما ترك هذه المحاولة ليتبه في مطلقه التوراتي مخلفاً وراءه عالم الأفكار والنظريات العلمية المادية التي كانت تدور رحاها بين الأوساط السياسية والثقافية اليهودية والروسية . لقد ظل بياليك متمسكاً بفكرة (الوحدة الروحية اليهودية) ، ودافع عنها بكل إيمان وعقيدة وهذا مالم يقم به تجاه دعوة هرتزل ، حيث أنه لم يهتم كثيراً بفكرة الوطن القومي بالمعنى الذي طرحته الصهيونية السياسية ومن المرجح أن القصائد التي كتبها في تلك المرحلة أي أثناء وبعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول ببازل عام ١٨٩٧ لم تكن لها صلة وثيقة بالدعوة للصهيونية السياسية ، باستثناء قصيدة

واحدة أهداها إلى المؤتمرين يعلن فيها مباركته للعمل على إحياء (الأمة اليهودية) لكن دون إشارة أو تلميح إلى قناعته ودعمه للحركة الصهيونية السياسية التي انعقد المؤتمر من أجلها . ورغم المحاولات المتكررة لأجل تفهم أفكار الصهيونية السياسية وطروحاتها ، بقي بياليك مخلصاً لمبادئه الدينية ، فنبذ كل مرتد على تعاليم التوراة والتلمود . ويقول أحد دارسيه إن آخر محاولة له في هذا الصدد هي قصيدته (العصفور) التي أراد من خلالها التقرب إلى أفكار الصهاينة ، لكن كانت هذه المبادرة دون جدوى لأن روحه الدينية كانت أقوى وأقدس في نظره ، وبعد ذلك خلف بياليك المفاهيم الصهيونية بلا رجعة متحصناً بإرادته الدينية ضد كل الأخطار :

« رغم أن الزمان الذي ينته لم ينه بعد
قصة خطيئتي القديمة
فالبركة أتت بقدومك
ولتكن أغنيتك سعيدة» .

هذا العصفور الذي يأتي مرفرفاً من فلسطين يسأله

بياليك عن أمجاد اليهود وأخبار الأنبياء وأحبار العهد القديم .
وفي هذا السياق نجد الشاعر ينغلق في المرجعية الزمنية التاريخية لكي يتعرّف مجدداً الزمن اليهودي الغابر محاولاً الولوج في هذه المرجعية للبحث عن الحقيقة الروحية التوراتية والتلمودية التي تغربت عن هذا الحاضر وأصبحت غريبة في عالم الأفكار والمتغيرات الجديدة . لكن العصفور الصغير يظل صامتاً ويستمر في التحليق عالياً ، ويضيع الأمل فجأة بين طيات هذا الصمت ، وأخيراً ينهي الشاعر القصيدة على هذا النحو متمنياً للعصفور أن تظل أغنيته سعيدة ، راجياً منه أن يأتيه بالجواب في يوم ما إلا أن العصفور يمضي ويمضي محلقاً وهكذا ظلت الحقيقة الوحيدة الماثلة أمام عينيه ، متمثلة بغربته وبؤس يهوديته الغريبة الضائعة :

« فجأة ، انفلتت النافذة ، وانطفأت الشمعة
أصبحت كطائر صغير مطروح أرضاً
في أول الليل ، في الظلام » .

وقف بياليك من الثورة الروسية الكبرى موقف

المعادي ، نظراً لأن مبادئها النظرية كانت تجسد الفكر النقيض لمعتقداته الدينية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن مبادىء هذه الثورة استطاعت أن تستقطب بين صفوفها أعداداً كبيرة من اليهود الثوريين ، وفي الواقع فقد ضاعف لديه هذا الوضع نزعة عنصرية مزدوجة ، ضد النظرية الثورية الاشتراكية وضد الصهيونية السياسية ، حيث ولدت لديه هذه الحالة مشاعر الريبة والتبرم بالناس الإيديولوجيين ، وعلى هذا النحو فإن النزعة الدينية المتطرفة عند بياليك هي التي صبغت أشعاره الأولى بمسحة العنصرية العرقية اليهودية وجرته للانحياز إلى الثورة المضادة ، ولكن دون أن يكون له موقف سياسي واضح ورؤية إيديولوجية محددة باستثناء بعض الأشعار التي عبر من خلالها عن سخطه ونقمته على اليهود الثوريين والعلمانيين :

« بين خرائب قلبك ، تقبع الميموزا ملوثة[٦]
وترقص الشياطين ، وتغني بين الجدران » .

---

٦ ــ الميموزا: تعويذة دينية لطرد الشياطين .

ومما لاشك فيه فإن اليهود المتدينين كانوا يرفضون الايديولوجية الصهيونية لأسباب سياسية ، وهم بالتالي كانوا يرفضون الدولة الصهيونية ويرون في قيامها وانتصارها خيانة للشعب اليهودي الذي تشكل قديماً كجماعة دينية في سيناء ، ولقد قامت لأجل هذه الأسباب وغيرها جماعات يهودية دينية لمعارضة الصهيونية السياسية وأهدافها ، ولعل من أبرز هذه الحركات جماعة (أجودات اسرائيل) التي تأسست لاحقاً في بولندة عام ١٩٢٢ لمناهضة الاتجاهات العلمانية بين اليهود وقد حارب أنصارها بضراوة ضد الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية وخاصة إبان الفترة التاريخية التي عاصرها بياليك وشارك فيها بفاعليته الشعرية وفي تلك المرحلة أي أثناء نهوض الفكر الصهيوني ، دارت صراعات طويلة بين يهود الصهيونية السياسية ، وبين اليهود الدينيين ولكي ينقد هذه الأسباب والخلافات اليهودية نرى بياليك يرثي اليهود الذين تركوا الدين اليهودي وآمنوا بالصهيونية والأفكار الاشتراكية الثورية واتخذوها ديناً لهم :

« أهكذا تندمجون في الأحجار الرخيصة

لقمة سائغة بين أسنان الشرهين .
تتركونهم يأكلون أجسادكم الحية
تبنون لهاجريكم بتوم وعمسيس
هكذا صار أبناؤكم
اسمنتاً بين الحجارة والخشب » .

نستشف في هذه الأبيات اللوعة والأسى اللذين كانا يعتملان في روحه ، أمام انهيار اليهود دينياً وأخلاقياً ، إذ أنهم أصبحوا لقمة سائغة بين أسنان الشرهين وأداة رخيصة في خدمة الآخرين دون إدراك منهم للهلاك الذي يحيط بوجودهم الحقيقي .

لقد تشوه مضمون الشعر في القصائد التي كرسها بياليك لوصف واقعه النفسي وظروف اليهود الاجتماعية ، ولم يستطع أن يميز بين الخير الذي سعت إليه الاشتراكية في روسيا وبين العنصرية والظلم اللذين قامت الصهيونية لأجل تدعيمهما . ومن جراء ذلك تخلخلت الأبعاد الشعرية في أغلب قصائده بالرغم من تمكن بياليك في صناعته للقصيدة ،

كخلق الصورة ، وجزالة المفردات الشعرية وجماليتها ذات الطابع الوصفي الغنائي ، لكن ومع كل دقة التقنية الفنية عند الشاعر فإنها لم تمسح في الحقيقة آثار العرقية اليهودية وشبح الطيف الديني الذي أغرق أشعاره المخصصة للموضوعات اليهودية في مستنقع الكآبة والبؤس . وهذه إحدى القصائد المؤكدة على النزعة المذكورة ، ففي (مدينة الذبح) وهو عنوان القصيدة التي يتحول فيها الرب إلى كائن ضعيف لا حول ولا قوة له أمام الهول الذي حصل إذ تنتاب الشكوك ضمير شاعرنا المتكلم مرتابة بهذا الرب الذي بات عاجزاً عن إنقاذ شعبه :

«تعال سر في مدينة الذبح
ولسوف ترى بعينيك المتجولتين ولسوف تلمس بيديك
الواعيتين
كانت السكين حادة وملتمعة
ومن الجرح تدفق الدم والذهب» .

من خلال هذا التشكيل المشهدي في قصيدة (مدينة الذبح) وبنائية الصورة بإيقاعاتها الخاصة وحركتها المرسومة

بدقة ، نلمس مقدرة يياليك الشعرية وخبرته الأدبية كشاعر ومهندس صانع للتقنيات وأدواتها الفنية. ولكن هذا التفوق الخاص بشكلانية القصيدة ليس اعترافاً شاملاً نسحبه على معظم مضامينه والاعتراف بها كلياً على مستوى القيمة الانسانية وإنما أردنا من خلال هذه الملاحظة أن نبين موهبة الشاعر في تعاطيه لمادة الشعر بشكل متفوق وفي هذا السياق يبدو الحكم على جمالية القصيدة ونسقها الجمالي كثيراً ما ينفصل عن الموضوع المحمول ، وبذلك تصبح مسألة الحكم على قيمة العمل الفني مسوَّرة بالتناقضات . وهنا اسمحوا لي أن أبين لكم هذه الفكرة ، وهي أن القصيدة غالباً ما تحمل صفة لازدواجية خفية يعيشها الشاعر خلال مولد الأثر الفني والمتمثلة في الصراع بين ملكة الاستشراف الحلمية الساعية إلى إعادة خلق الواقع ثم الصعود به إلى مرتبة المثل الأعلى ، هذا من ناحية ومن جانب آخر تتمثل هذه الإزدواجية الخفية في التناقض الذي يشكله الواقع المعين بهياكله المركبة ، في مقابل جنوح متعال لهذا المثل الأعلى ـــ الحلم ـــ كلما اقترب منه الواقع ، وهذا هو جوهر الفن في ذاته الذي يجسده كل نص عظيم ؛

وهذا ما نلمسه حقيقة في أعتى قصائد بياليك . وعلى سبيل هذا المثال ينتقل الشاعر في قصيدته من مستوى الجريمة المصورة إلى حالة أخرى نقيضة للأولى ، يختفي منها مشهد الجرح والسكين ، وتحل محل الصورة السوداوية مشاهد شعرية مشرقة بالتفاؤل الشعري والأمل ، وهذا مثال واضح أخذناه للتدليل على فكرة الإزدواجية الخفية عند الفنان :

« وبهدوء كهدوء الأمس واليوم
سوف تشرق الشمس من الشرق
دون أن يقل بهاؤها أبداً » .

ونتيجة لذلك فأي معنى شعري في هذه الأبيات يستطيع أن يسعف المقولة النقدية الصهيونية العاملة على صهينة كل أثر فني يهودي كان اتجاهه وطريقته ، ونحن كما نرى أن أبيات الشاعر المذكورة لا تدل في أفقها الواسع سوى على موقف شاعر يهودي بائس أرعبته فظاعات الحرب والمجازر التي لحقت باليهود ، ونتيجة لألمه الدفين ، لم يبح الشاعر بدعمه للصهيونية ولا هو دعمها وتبنى فكرتها في شعره . إن مآسي

اليهود وهجراتهم المستمرة من مكان إلى آخر هي التي قادته إلى التشوف من أبراج العدم :

«فأنا نفسي فقير ، ها قد أصبحت معدماً» .

حيث كان يرى تدهور الأخلاق الدينية اليهودية ، وتفسخ القيم وخراب المجازر ، وهي من البواعث التي دفعته إلى الهروب والتقوقع خارج العالم بكل ما يدور فيه من خير وشر :

«فاهرب الآن يا ابن الانسان
واختبىء في الصحراء وصر مجنوناً
وهناك مزق روحك آلاف المزق
واقذف بقلبك طعاماً للكلاب الشرسة
ولسوف تئز الحجارة المحترقة تحت دموعك» .

إن التطورات التي كانت يلاحق بعضها البعض بين يهود الصهيونية السياسية ، وبين اليهود الدينيين وما جلبته من مخاطر وكوارث على جميع اليهود في روسيا القيصرية ، تركت أثراً بالغ التعقيد في نفس بياليك ، فتعاظم لديه الهول الشخصي ،

هذا الهول حتم عليه الهزيمة الروحية وهزيمة شعب الشتات ، وبالتالي فإننا نجده في هذه الأبيات يستسلم لمازوشية ، اتصفت بالمبالغة والهستيريا الروحية :

« مزق روحك آلاف المزق »

وبواسطة هذا المعنى يعدم بياليك في هذا المجال شعرية القصيدة ، ويحول طقسها الفني إلى لوحة سوداء ، تلاشت أطراف صورها إلى قطع منثورة في دروب خانقة :

« واقذف بقلبك طعاماً للكلاب الشرسة » .

بعد موت هرتزل تفاقمت الاختلافات بين الأطراف الصهيونية ، وازدادت الأمور سوءاً وانقسم الصهاينة إلى فصيلين أثناء التصويت على مشروع أوغندة ، وخاصة أن الدول الاستعمارية لم تتخذ بعد قرارها الحاسم بانتشال فكرة الوطن القومي من مأزقها وأمام هذا الوضع الجديد تلاشت حماسة بيالك للصهيونية السياسية ، وتحول عنها إلى الأ[illegible]د متحطم المشاعر ، وقفل بعد هذه التجربة / المحاولة راجعاً إلى الغيتو الديني بين أحضان الروح التوراتية ، وتعد قصيدته

(التلميذ المثابر) محاولته شبه الضائعة في عالم لم يكن مشدوداً إليه بقوة ، وهنا يعود هذا التلميذ صلداً كالحجر غير عابىء بما يجري حوله من تحولات :

« يرفع يده المنهكة كمن يصلي
أيتها الروح العزيزة خذيني من هنا
وجدي لي مكاناً أستريح فيهُ
فليس هنا غير التعب والألم

المرمر يذوب كالطين إذا ما قورن به
الولد اليهودي مكرس للتوراة »

إن سيطرة المناخ الديني متجلية في هذه الأبيات الشعرية ، إذن ؟ ها هو بياليك يحدث روحه لكي ترحل من عالم الجحيم ، عالم اليهود المتناحرين على الطمع وإهلاك بعضهم البعض الآخر في المجتمع الروسي الذي حاول أن يجد لهم الطريق المعقول . ونتيجة لذلك أصبح اليهودي في نظر بياليك يهودياً مسجوناً في جحيم الصهينة واليهود العلمانيين ، لقد بات جميعهم يهوداً متغربين عن روح الشاعر الخالصة ،

إن الكل تلاشى بلا عودة في مهب الريح والضياع ، وفي هذا الواقع المرّ أصبح المرمر يذوب كالطين ، وأصبح الألم مضنياً مفتوحاً في المكان وانفصل عن عشق الشاعر . ويطالب الشاعر في آخر القصيدة بالحفاظ على بذرة الروح اليهودية الدينية الخالصة :

«لكم هو نصيبنا محرق
إذا قدر لهذه البذرة أن تموت»

ونشير مرة أخرى إلى أن النزعة الدينية اليهودية الخالصة ، تمثل في الحقيقة العمود الفقري لإشعار بياليك ، الذي لم يكن صهيونياً كما شاء له هرتزل ، ولكي يعبر عن انفصاله واغترابه المزدوج تجاه الصهيونية ونزعاتها الحادة ، فإنه يعبر عن ذلك في قصيدته (التلميذ المثابر) نفسها :

«مسمراً منغرساً في مكانه
لا يحس بأي تغيير أو ثورة
أشباح السنين تمر من خلفه
الجدار الحديدي ، وهذه الأوراق الصفراء تنتصب أمامه» .

إن هذا الجدار الحديدي وهذه الأوراق الصفراء المنتصبة أمامه ، ليست في نظري سوى الحاجز الذي فصل بعمق بين الصهيونية السياسية وبين سائر الاتجاهات العلمانية التي عصفت باليهود إلى دونما اتجاه . أما في قصيدته التاريخية الشهيرة (الموت في الصحراء) ، التي يعتبرها النقاد من أغنى القصائد وأكثرها تطوراً فنياً ، فيعترض الشاعر لأسطورة الخروج من مصر التي وردت في التوراة وهي تقول إن الجماعات التي خرجت ، كانت جماعات متمردة وإنها قد هلكت في الصحراء بأمر من الرب . وهنا نجد بياليك يبدي تعاطفه مع المتمردين وقد صورهم بالعظمة في موتهم :

«قوية جباههم ملتمعة ومظلمة كالبرونز
أجفانهم هدف لسهام الشمس والصخور والغضب
والعواصف
جباههم صلبة منقبضة لا تتغير
وهي تجابه السماء» .

كرس بياليك نفسه كشاعر يهودي لأجل تمجيد التراث

اليهودي ، فعاش في الزمن اليهودي القديم مستذكراً أمجاد بني جنسه الأبطال ، إذ كان دوماً يقارنهم بالأسود الأشاوس ، في مقابل سخطه على يهود عصره المتغربين عن تاريخهم ودينهم . إنه حاول دائماً أن يبقى بين أسوار مملكة يهوذا القديمة متسلحاً بذاكرة التراث لدرء الأخطار في عالم اليهود التائهين :

« مدن من التشتت بعيدة
حيث مازال يضيء في السر نورنا القديم
حيث الله قد أنقذ بقية من الدمار
هناك يلتمع الضوء بين الخرائب
حيث الأرواح الكسيرة التعيسة تواصل السهر
نفوس عبرت حدود الزمن» .

ويعجز بياليك في إيجاد مخرج يصلح به شؤون اليهود التائهين في مستنقعات العداوة والظلال ويتيه هو بعيداً حيث لا يجد بني جنسه وقد تفرقوا أشتاتاً ، وينكفىء الشاعر على ذاته إلى آخر حياته متحملاً مصيره وقابعاً بهدوء داخل ذاته .

« لابأس ـــ ها أنا ذا أتقبل مصيري

رابطاً عدتي إلى حزامي
عاملاً يومياً بدون أجر
أعود أدراجي بهدوء
إلى كوخي أقفل راجعاً
مع أشجار الجميز أقيم عهدي
وأنتم ـــ تتعفنون وتتفسخون
غداً تحملكم الريح بعيداً » .

من هم الذين أصبحوا يتعفنون ويتفسخون ؟ إنهم في نظر الشاعر يهود الصهيونية وكل يهودي مرق عن خلاصة الدين اليهودي كما أننا نلاحظ في هذه الأبيات موقف اللاعودة إلى تقبّل الأفكار الصهيونية والدنو من اليهود الآخرين المرتدين ، هؤلاء الذين سوف يتفسخون جميعهم ويزولون مهزومين لأنهم خانوا النبي ، وبهذا المعنى فقد بياليك ثقته المطلقة بكل القيم الصهيونية وبكل الامتدادات المعرفية اللايهودية .

بعد هذه المرحلة الشعرية الخصبة التي امتدت من ١٨٩٢ ـــ ١٩١١ والتي اتسمت بثلاثة أطوار شعرية ، ألف

بياليك قصائد ذاتية صرفة ، وقد تحددت هذه الأطوار كالتالي :

اتسم الطور الأول بالتناول الشعري لتفسخ الحياة الروحية الدينية اليهودية ، أما في الطور الشعري الثاني فقد صور بياليك غضبه ونقمته بسبب ما كان يلاقيه اليهود من اضطهاد ثم الاختلافات التناحرية التي كانت تدور بينهم . وفي الطور الثالث عاد الشاعر إلى ذاتيته المفرطة وأخيراً هروبه المفزع إلى عالم اللادراية والريبة بكل ما يمت إلى الثورة والتغيير الاجتماعي .

وبعد رحلة الشعر والمعاناة في أوديسا ، استقر الشاعر في فلسطين ، حيث أسس داراً للنشر ، ولم يكتب في فترته الفلسطينية سوى مجموعة واحدة للشعر سماها (اليتيم) صور فيها أيام شبابه في أوديسا ، بينما وقف عاجزاً عن كتابة أية قصيدة أخرى خلال مدة بقائه في الأرض العربية المحتلة .

إن الحكم النقدي على أشعار بياليك بلغة نقدية أحادية الجانب ، يضعنا أمام عدة صعوبات ، لايمكن تجاوزها

إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار الأُسس التربوية التي تربى عليها الشاعر ، إضافة إلى التناقضات الشخصية وأبعاد البوهيمية الطاغية على فكره وشعره فحينا كان يقبل بعض طروحات الحركة الصهيونية ، وفي حين آخر كان يرتد عنها ليعلو بالدين اليهودي إلى مرتبة المطلق ، في مقابل استخفافه بزعماء الصهيونية وأتباعهم من العلمانيين ، لكن فجأة ما نجده يهجر الجميع فيشك بقدرة الآلهة على إنقاذ شعبه وأخيراً يحتمي بذاته ويغور في عوالمه الداخلية دون حدود . ولهذا فإن ذاتيته الشعرية التي تحركت بين قطبي الانعزالية العرقية والمثالية الموضوعية الشعرية ، لها مايبررها من العناصر الروحية والعقائدية المتداخلة في تجربة حياته الشخصية وكتابته . ولعل هذه الأبيات الشعرية تبين مدى رفضه واعتزاله العالم ، ثم شماتته باليهود :

« إلى كوخي أقفل راجعاً
مع أشجار الجميز أقيم عهدي
وأنتم ـــ تتعفنون وتتفسخون
غداً تحملكم الريح بعيداً » .

إن الشاعر بياليك وبحكم تنشئته اليهودية المتزمتة

الصارمة ، كما ذكرنا ذلك في بداية الموضوع ، هذه التنشئة منعته في الحقيقة من تجاوز آلامه الخاصة ، بل قل إنها كبلت موهبته وحجبت عنه معانقة عذابات الروح الانسانية الأصلية ، ولذلك فإننا لاننكر في شعره حضور المشاعر الدونية وآثار العنصرية والعرقية اليهودية المتفوقة ، وبالتالي عجز بياليك عن السمو بآلامه الفردية الخاصة ، ولم يستطع أيضاً تجاوز المفاهيم الدينية اليهودية الضيقة ، لقد بقي فاجعه الفردي فاجعاً يهودياً فحسب خلا بعض القصائد القليلة التي تناولت موضوعات شعرية متنوعة .

إن بياليك حكم على الشعر بالألم اليهودي وفسحات الروح الضيقة ، وهذا مما ضيع عليه الكثير من الشعر العظيم الذي كان بميسوره أن يدخل إلى أعماقه . وبهذا المعنى فإن الشاعر الذي يستسلم للوساوس المرضية والأوهام ، يعدم في ذاته حرية الأشراق وحيوية الطقس الفني ، وعلى سبيل نقض هذا المعنى يمكننا أن نستشهد بالشاعر الفرنسي لوتريامون الشاعر الذي لقب بفنان الرعب والهستيريا الروحية ، ثم مقته الشديد لبني البشر ، لكن كل هذه الآفات لم تمنع عبقريته من

التحليق في سماء الاشراق ، بل إن روحه الصافي لم يعدم الغاية السامية للقصيدة ، فلنقرأ في هذا النشيد رحابة الروح التي هي رمز الخير وصلاح الطبيعة عن طريق الحلم باكتساب الفضيلة :

« أيها الأوقيانوس الشيخ .
إنك أعظم شأناً
من الانسان الذي يتوقف لحظات طويلة
لمشاهدة عراك كلبين ،
ولكنه لا يتوقف لحظة واحدة
أمام عبور جنازة ميت .
إنني أحييك أيها المحيط الشيخ » .

إذن هذا هو الفارق بين روح مشرقه إلى الأبد تقتات من الألم والبهجة على حد السواء ، ثم بين روح ثانية قتلتها المخاوف والأوهام الذاتية الخانقة .

ولكن مأزق بياليك الشعري لم يمنعه قطعاً من التحليق

في فضاء الشعر وفي أوسع مساحة إشراقية يمكن أن نقرأ هذه الأبيات :

« وبهدوء كهدوء الأمس واليوم
سوف تشرق الشمس مع الشرق
دون أن يقل بهاؤها أبداً » .

أو كما في هذه الأبيات التي تصور خبرته العميقة في الحياة ، ثم مقدرته على تجسيد رؤيته الشعرية حين يكون صفاؤه الروحي مفتوحاً على كون الاشراق :

« أنا لم أكتسب الضوء من طرق الحرية
لا ولا من جانب أبي
هكذا جاءني منحوتاً من شقوق صخوري
لقد اجتزأته من قلبي » .

هكذا تغدو الصخور والقلب ، مصدر الحرية ومركز الاشعاع الذي لم يأخذه من أحد . لم تخدم الصهيونية بياليك ، ولم يخدم بياليك الصهيونية في شيء ، لقد كان دائماً حبيس أفكاره الدينية ومتجولاً في صومعة ذاته ، متعالياً على

وجود يهودي لم يعد مصلحاً بذاته . وإذا كانت الصهيونية السياسية قد جعلت منه لاحقاً شاعر القومية الصهيونية ، فإنها فعلت ذلك من قبيل الدعاية السياسية . إن النقـد الصهيوني يدرك حتماً المكانة الحقيقية لبياليك الشاعر اليهودي الذي خذل صهيون وخذل ذاته وتخلى عن الجميع باستثناء روحه اللاهوتي المعذب رامياً بعنقه تحت سلطة الجلاد :

«أيها الجلاد ، هاك عنقي
تعال واضرب رقبتي
كما تضرب الكلب
ها هو عنقي بين يديك
وكل العالم سنداني» .

وعلى هذا النحو ننهي مقالنا عن بياليك الذي لم يعش لأجل أحد ، وهو الشاعر الذي عاش في الحيرة أكثر مما عاش في عالم اليقين .

النزعة العنصرية
في شعر الكيان الصهيوني المعاصر

إن البحث في هوية الشعر الصهيوني المعاصر له دروبه الملتوية التي نتج عنها وكان نتاجاً طبيعياً لوجودها ، لذلك حاولنا جاهدين أن نكون متيقظين وحذرين عند تناول الأدب الصهيوني وما يحمله من تناقضات عديدة . ومهما اختلفت وجهات النظر حول طبيعة الشعر الذي أفرزه الكيان الصهيوني يظل مضمون هذا الشعر كمثل الأدب يحمل في النهاية سمات الفكر الصهيوني وتوجهاته العنصرية ، ونحن سنبحث في هذا المقال في هوية الشعر الصهيوني ما بعد تأسيس دولة كيانه المحتل .

لقد قلنا منذ البداية أن الكيان الصهيوني قام بالعنف

والقوة ، فهجِّر الشعب الفلسطيني من دياره بمساعدة قوى الاستعمار الدولي لأجل مد نفوذه في المنطقة العربية بواسطة هذا الأخطبوط . ونحن كما ندرك أن تأسيس دولة ما وفي مجتمع معين يرتكز بالضرورة على وجود بنى اجتماعية وطنية وروابط قومية سياسية وثقافة ذهنية تاريخية مشتركة تمثل الأرضية الحقيقية لهذا المجتمع المعين ، في أرض وفي وطن محدد الحدود والانتماء ، وفي هذا السياق ندرك أيضاً بأن قيام الكيان الصهيوني كان خارجاً على هذه الشروط ، وهنا نقول بأن وجوده العدواني قد تم في فلسطين من خلال تدعيم الهجرة اليهودية إلى الداخل بواسطة الدعاية الصهيونية والإغراءات المالية التي كانت تدفعها الوكالة اليهودية الصهيونية لليهود وبدعم مباشر من قبل الدول الاستعمارية إبان صعود الحركة الصهيونية . ومن جهة ثانية قابل هذه الهجرة اليهودية المكثفة ، الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية باعتبارها الملكية الحقوقية التي تم استرجاعها ، وهي بالتالي الملكية اليهودية المنصوص عليها في كتاب التوراة .

إن الأدب الصهيوني واكب تاريخ الحركة الصهيونية ،

وبقي مرتبطاً بها يعبر عن مصالحها وأحزانها ونكساتها ، أي أن الروح التسجيلية تمثل طابعه واتجاهاته العامة ، ونحن نفهم أيضاً أن الأدب الحقيقي ، هو ذلك الأدب الذي يتسلح بالتاريخ الحقيقي للمعرفة والفكر الشعبي المستمد من جذوره ، هذا التاريخ الشعبي والمعرفة الخاصة به يمكن الاستناد عليهما لأجل استيفاء المعلومات عن التكوينات الباطنة في مجتمع من المجتمعات ، التي يصعب في أحيان كثيرة رصدها بواسطة ظواهر المعرفة المباشرة من كتابات سياسية وإيديولوجية . إن الأدب الصهيوني بكل موضوعاته العامة لم يستطع بلوغ مراتب جماليات الاشراق الانسانية العاملة على زرع الخير والحقيقة والعدالة والمحبة إنه الأدب الذي اكتفى فقط بحماية المنجزات الصهيونية والجلوس تحت سقفها .

خصائص الظاهرة الأدبية في الكيان الصهيوني

يقول الدكتور ابراهيم البحراوي في كتابه الجيّد (الأدب الصهيوني ما بين حربين) إن الظاهرة الأدبية ، ليست

سوى جزءاً من ظاهرة كلية ، تمثل التشكل الاجتماعي والإيديولوجي ، وبذلك تتحدد الظاهرة الأدبية بالقوانين التالية :

١ ــ إن بناء الإيديولوجية الصهيونية السائد في المجتمع الاسرائيلي سابق في وجوده على البناء الاجتماعي ذاته ، وهذا يعني أن قيام هذا المجتمع المذكور ، قد نشأ في ظل الإيديولوجية الصهيونية بمعزل عن أي وجود آخر .

٢ ــ توجيه أجهزة الضبط الايديولوجي لعزل أو احتواء الاتجاهات الفكرية أو ضبط الاتجاهات الثقافية والفكرية المعبرة عن نظريات الحركة الصهيونية .

٣ ــ كما توجد هناك عوامل أخرى مشروطة بآلية الإيديولوجية الصهيونية في تعاملها المغلق مع الداخل والخارج الخاصة بالصراع العربي الصهيوني ، ولذلك فإن ضرورة البحث المنهجي لهي من الشروط الأساسية لدراسة ومعرفة أي نص أدبي صهيوني (إذ يستحيل التعامل النقدي مع أية وثيقة أدبية صهيونية دون ملاحظة تشابكها مع البناء الإيديولوجي ، أو إحدى الظواهر الاجتماعية الواقعة تحت

سيطرته)[7] إضافة إلى الخلفية الفكرية والفلسفية التي يستند عليها هذا الأدب. وهنا سنحاول في هذا المجال دراسة ظاهرة الشعر الصهيوني الأدبية بعنصريته ومضامينه خاصة ما بعد الحربين (٦٧ — ٧٣)، هذا الشعر الذي مثل لاحقاً الافراز الثقافي / النفسي لمجتمع المؤسسة الصهيونية. وأخيراً فإن الدارس لقاعدة هذا الشعر الفنية والموضوعية، يلمس وجود اتجاهين كبيرين يلخصان عموماً التجربة الشعرية في الكيان الصهيوني:

١ — اتجاه شعري يؤكد في موضوعاته الرسمية على تكثيف النزعة العنصرية، وإحياء العرقية اليهودية لأجل استمرار الحركة الصهيونية.

٢ — اتجاه شعر الرفض والاحتجاج أو شعر العودة إلى الطبيعة، وقد نشأ هذا التيار بعد حرب ٧٣ العربية الاسرائيلية، حيث انكشفت حقيقة الصهيونية وبؤسها بالنسبة لليهودي نفسه، وهذه

---

٧ — راجع إبراهيم البحراوي، الأدب الصهيوني مابين الحربين، ص ١٦.

الحرب نفسها هي التي أسقطت مقولة البطل الصهيوني الذي لايقهر .

لكن هذين الاتجاهين نجدهما من جهة ثانية متداخلين في إطار بنية ذهنية وأدبية موحدة ومعقدة في سياق الثقافة اليهودية بذهنيتها الخاصة . وبتحصيل حاصل فإن الحرب التي تلت تأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين ، مثلت حينذاك ناقوس الخطر الحقيقي الذي أوحى لليهود الصهاينة بهشاشة كيانهم ومن ثم الخطورة التي أصبحت تهددهم بفعل تنامي المقاومة العربية في داخل الوطن المحتل وفي خارجه زد على ذلك انتباه العرب إلى ضرورة استعمال الوعي القومي كسلاح أساسي في المعركة الطويلة مع العدو .. وبسبب ما منيت به اسرائيل من هزائم ، اهتز الشعور الصهيوني في أعماقه تجاه دولة اسرائيل ثم المستقبل المجهول الذي أصبح ينتظرها ، وقد أدى كل ذلك إلى سيل من المؤثرات السالبة أثرت في مستويات النص الأدبي الصهيوني ، مما دفع بعض النقاد الصهاينة إلى التصدي للأعمال الأدبية والفنية خاصة منها التي باتت تشك

في قدرة هذا الكيان على حفظ الأمن النـفسي والاستقـرار الروحي ليهود الشتات النازحين من كلّ صوب وحدب ، وهذا رأي للناقد الصهيوني د. ميخالي حول هذا الموضوع : (لقد أدت الحرب إلى حالة من الارتباك الشديد والتفكيك ، وهو ارتباك ينسحب على الأدباء ، كذلك فإنني لا أستنكر الحيرة أو الارتباك ... غير أنه لا بد وأن نقرر بأن الحائرين المرتبكين ليس في مقدورهم أن يكونوا هداة أو مرشدين للحائرين . إن الأدباء مازالوا مستمرين في إظهار استجاباتهم تجاه الأحداث التي وقعت كل حسب وجهة نظره ... وبينهم قلة تجاهد لكي تشجع الشعب وتؤازره في محنته ، غير أن هنالك في الوقت نفسه آخرين مستفيدين يضيفون أحزاناً على أحزان . لقد اهتزت ثقتهم اهتزازاً شديداً فراحوا يزرعون اليأس حولنا الأمر الذي بات ينطوي على خطر شديد يهدد مستقبلنا)[٨] . وأن هذا الشعور المليء بالانكسار والخوف من المستقبل اتضح بشكل بارز في نصوص الأدب والشعر الصهيوني المعاصر . مما

٨ ـــ د . ي . ميخالي ، إجابة على سؤال في استفتاء بعنوان : حرب يوم الغفران وتأثيرها على الجماعة والفرد في الكيان الصهيوني بتاريخ ٥/٤/١٩٧٤ .

فرض على الأديب الصهيوني الاستغراق في النزاعات الارتدادية نحو اكتشاف الذات الصهيونية ، وإعادة تقييم وجودها الذي فقد طوق الأمان الكامل في نظام المؤسسة الصهيونية .

الشعر الصهيوني المعاصر واتجاهات التجربة الشعرية العنصرية المباشرة

إن تناول الشعر الصهيوني المعاصر بكافة اتجاهاته لا يمكن فصله عن الإيديولوجية الصهيونية التي تفرع منها ، حيث ارتبط بها هذا الشعر ارتباطاً عضوياً لا مجال لفصله عنها ، وبهذا الصدد نورد مقولة يهوذا عميحاي وهي تؤكد لنا هذا المعنى : «في بلادنا لا يمكن إلا أن نكتب الشعر السياسي ، وشعر الحب أيضاً عندنا شعر سياسي» . وبذلك نستطيع فهم مدى العلاقة بين الشعر الصهيوني وبين الايديولوجية الصهيونية التي توجه قوانينه العضوية ، وحتى إذا

كان ثمة فصل بينهما فإنه لا يتعدى حدود الفصل الشكلي ، وذلك لأن جوهر المسائل الأدبية والفكرية والثقافية الصهيونية ، خاضع لتحكم الضبط الإيديولوجي الذي تمارسه سلطة الكيان المحتل . وقد تعاظم دور هذا الضبط بصعود تكتل الليكود العنصري إلى السلطة ، وشد الخناق على حريات التعبير وظهرت نواياه بالمساس بهذه الحريات .

إن المتتبع لسياسة الكيان الصهيوني ، يلمس ظاهرة الحرص والقمع التي تقوم بها أجهزتها ضد بعض الحركات اليهودية المناوئة لبعض القضايا المعلقة بمصير المجتمع الاستيطاني في فلسطين .

(وإذا كانت هذهُ القبضة الحديدية الخفية للدولة والمجتمع تعتصر المناخ الثقافي وتراقبه بحذر وعن بعد لتتدخل بحسم وعنف كلما رأت ضرورة لذلك ، فالأعمال الابداعية وهي ربما دون غيرها تقع عرضة لنوع من التدخل يمسخ رؤيتها إلى ما ينسجم مع رؤية النظام ومتطلباته . والدولة هنا تجثم من خلف الستار تاركة للحركة الثقافية المسيسة ذاتها حريتها في

الحركة والتوجيه)[٩] . وبالتالي فإن مشكلة الالتزام في الأدب الصهيوني المعاصر تأخذ شكلاً خاصاً في منظورات هذا الكيان واختياراته السياسية والايديولوجية ، ولهذا فإن الأديب الصهيوني ينطلق من التوجيه السياسي للظاهرة الأدبية لينتهي أخيراً إلى كتابة نص ثقافي لا يحيد مطلقاً عن برنامج الدولة وأهدافها الاستعمارية المباشرة ، وها هو الشاعر الصهيوني يعقوب باسار يجسد في هذه القصيدة أزمة اليهودي النفسية والمأزق الشعوري الذي بات مطروحاً أمام المؤسسة الصهيونية :

« الحرب المقبلة ... ننشئها ... نربيها
مابين حجرات النوم ... وحجرات الأولاد
النعاس آخذ في الاصطباغ بالسواد
ونحن في فزع من الاقتراب منه
زهرات الحديد للحرب المقبلة
ما بين حجرات النوم ... وحجرات الأولاد » .

---

٩ ــ راجع شؤون عربية (عدد خاص بفلسطين) ١٩٨٤ .

إن مثل هذه القصيدة تشكل هزيمة الفرد الصهيوني في مجتمع قام على أسس تغذية الحرب وزرعها في عقل اليهودي ، كظاهرة ومبدأ داعم لوجوده ، وبذلك فقد تشوهت الذائقة الشعرية وأصبح هاجس الخوف التغذية الرئيسية لمثل هذا الشعر الفاقد لهوية الاستقرار والتشوف الرؤيوي الروحي ، وهنا يبدو لنا أن الصهيونية ليست معنية بخصوصيات الفن الجمالية العليا ، بقدر ما هي معنية بتوظيف الطاقات الشعرية لخدمة أغراضها الثقافية العدوانية ، وبالتالي فإن زرع الخوف في نفس اليهودي يجعله باستمرار مرتبطاً بآلية الصهيونية ومبادئها العسكرية والحربية .

إن الحركة الصهيونية منذ قيامها وحتى يومنا هذا ، قد عمدت وبتخطيط مسبق إلى كافة السبل بفرض وجودها بالقوة بما في ذلك استخدامها للفن والأدب ، ولعل شكل التجارب الشعرية المباشرة ، يدل على التزام الأديب الصهيوني بقضايا الصهيونية السياسة :

« أيها الأولاد ، أنتم من ستموتون في الحرب القادمة

محترقين بصاروخ دبابة أو ممزقين بقذيفة
أو مصابين بشظايا
وستقطع أيديكم ، وتمزق أعضاؤكم الداخلية
لا تخافوا الآن .
ولا تخافوا لدى قدومها
إذ أنكم ستموتون في الحرب القادمة
فجأة ، وشيئاً فشيئاً ودفعة واحدة وخلال زمن طويل
إذ أن الموت سيأخذكم بحرب أو بدون حرب
في الموعد الذي يختاره »[١٠] .

لا موضوع لجمالية الشعر وغايته التربوية أو الأخلاقية الانسانية في هذه الأبيات ، إن القصيدة مبنية على تجسيد الكوارث واستبصار رؤية الخراب من مواقع شعور مهزوم بالشكوك والخوف من حال معاش . إننا لا نستطيع أن نجاري الشاعر في هذا الخطاب الموجه إلى الطفولة ، لأنه من غير الممكن أن نخاطب الأطفال بمثل هذه المشاعر مهما كانت

١٠ــ عن معاريف الصهيونية بتاريخ ١٠ / ١٢ / ١٩٧٦ . قصيدة لإيتان إيتان بعنوان أولاد ، ترجمة توفيق الصواف .

الغايات المرصودة لأي موضوع ينتمي لقضايا معينة كالخوف وترسيخ الهزائم ، لأن عالم الطفولة يجب أن نبتعد به كثيراً عن دوائر المآسي والأحزان .

ولكن الشاعر في هذه القصيدة قد وجد أن لا بد من مخاطبة الأطفال المعنيين عن الحرب والرعب القادم الذي سيخطف أرواحهم ويقتلهم ، وبالتالي فإننا نلاحظ سوداوية هذا الوصف المعبر عن الفكر الصهيوني المهزوم من خلال لغة شعرية مباشرة يبدو أنها لاتحمل في طياتها بشائر الروح الجمالي الخالق أو بالأحرى فإن هذه اللغة الشعرية تؤكد على نزوع خاص بالشعر الصهيوني المعاصر نحو تأصيل الكوارث (فالعزف على أوتار الخوف له ارتباط وثيق بالهوية اليهودية المفقودة وهي المشكلة الأساسية التي يعاني منها الكيان الصهيوني وتتصارع المدارس الفكرية في إبداء الحلول لها وتعقد لها المؤتمرات والندوات)[١١] . ومن جهة ثانية أكد قيام الكيان الصهيوني عقلياً ووجدانياً تجسيد مقولات الايديولوجية الصهيونية التي كرست لخدمة التوسع الاستعماري

---

١١ ــ راجع شؤون عربية نفس العدد السابق ص ٤٠٦ .

الصهيوني ، ولهذا فإن الاتساق بين وجود دولة هذا الكيان بكافة شرائعه الثقافية والسياسية الدستورية والاجتماعية ، قد انعكس بوضوح سلبي في النص الأدبي الصهيوني المعاصر :

« انظروا كم هي آثار نهش الانسان
في ...
كم كنت صبية
فجوات تغطي نصف جسدي
والمياه تعبر خلالي والأيام
وجميع السنابل وجبال السوسن
أسد مصاب يقف مثخناً بالجراح
وقد لحق به الهزال
ومن شريان مقطوع تتدفق نكبة » .

إن الأدب الصهيوني المعاصر محكوم بمحنة التوجهات والتنظيرات المختلفة ، مما أثر في هذا الأدب وجعله ينقسم على ذاته ما بين تيارات الاصلاح اليهودي ، ثم الاندماج مع التغيرات المستجدة والبعث العبراني والصهيونية واستعمار

فلسطين ، وعلى هذا الأساس اختلفت المفاهيم حول القيم العليا للشخصية اليهودية وعلاقتها بالعالم الحديث ، وتأثر الشعر تأثراً بالغاً بعقدة الاختلافات والتوجهات العقائدية للحركة الصهيونية ، بل إنه لم يستطع أن يتجاوز الخصائص العنصرية لهذه الحركة ، ولذلك كان لزاماً على الفكر الصهيوني أن يتصدى للقيام بتلك المهام المتضاربة مستخدماً عقائد مختلفة أحياناً ، ومتناقضة أحياناً أخرى ، ولهذا لم تستنكر الصهيونية أياً من آراء مفكريها الذين تراوحت معتقداتهم بين الليبرالية والاشتراكية والفاشية ، ثم بين التزمت الديني والإلحاد[١٢] ومن خلال هذه الخلفية نلاحظ مختلف الاتجاهات والبرامج في الدين والسياسة على حد تعبير الحاخام آبراهام كوك : (إنها فروع في شجرة الحياة اليهودية الجامعة) وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن افتقار الفكر والأدب الصهيوني المعاصر إلى الواقعية وبعد النظر سيؤدي مستقبلاً إلى تعريض دولة الكيان الصهيوني نفسه إلى الخطر ، ولهذا فإن انعكاساً أجوف مثل هذا الذي يعكسه الفكر الصهيوني المعقد

١٢ ــ راجع كتاب محمد ربيع ، أزمة الفكر الصهيوني ص ١٥٨ .

الاتجاهات أصبح اليوم يشكل النغم الجنائزي في القصيدة الصهيونية المعاصرة :

«أحس بروائح قوية
روائح جثث ...
روائح لحم في ضرام عنيف
من الزيت يحترق ...
يشوى على صدر فرن من الرمال
يزيد من رقعتها مصدر عال
جثث ...
من أجل تكثيف المذاق» .

أي معنى لروح الشعر الخالق ، وأية صور حسية إنسانية في هذه الأبيات الشعرية ، إننا في هذه القصيدة أمام مناخ شعري مليء بالكوارث ، مسور بصور الدم والجثث ، وروائح اللحم البشري المشوي في أفران الرمال ، ومهما ذهبت بنا العواطف لاجتثاث موقف الشاعر الناقم ، الساخط على أهوال الحرب فإن ما يقدمه لنا من شعر يقع فريسة الخوف

والرعب الذي ما ينقلب فجأة على الأثر الفني ويحوله إلى كارثة حسية وروحية ، تكشف عن نفسها عارية وموبوءة بالغثيان والمرارة .

لقد بذلت النخبة السياسية لجيل الرواد هؤلاء الذين احتفظوا بذكريات العذاب والاضطهاد النازي ما في وسعها لإحياء نيران الكارثة واستحضارها كلما فترت الحماسة . وظل هذا الاتجاه سائداً إلى أن قام الكيان الصهيوني الذي حقق عدواناً على العرب بمساعدة القوى الاستعمارية ، وبفعل هذه التطورات وصلت الفردية الصهيونية إلى نقطة اللاعودة للتصورات القديمة التي كانت مسيطرة على اليهودي ، وبانتقال الحركة الصهيونية من مرحلتها الدينية إلى مرحلتها السياسية ، بدأت الحركات الثقافية والفكرية تنحو باتجاه التركيز على الهوية الاسرائيلية ، كبديل نقيض للهوية اليهودية ، فتعالت أصوات العلمانية للتخلص من الطابع الديني للدولة بما يحمله من ذكريات الاضطهاد . وبهذه الدعوة انطلقت الحركة الثقافية في محاولة حثيثة لتطوير الإيديولوجية الصهيونية وفقاً للخبرات الجديدة التي استجلبتها معها زمر الشتات اليهودية ، وقد

انعكست هذه الحقائق في مرآة الشعر الصهيوني المعاصر ومن جراء ذلك تراجع الأسلوب التاريخي لأدب الإحياء القومي ، وبهتت إلى حد معين موضوعات الكوارث وذكريات العذاب ، ليحل مكانها الأسلوب المدائحي لتمجيد الروح العسكرية :

« عرفتك أدغال تحفّ
على نهر الأردن ... في أم سوس وأم شرط
حيث يرقد رجال وعيونهم ترقب النهر .
عرفتك عيدان القصب الساكنة
وخضرة مدقات بركام القاذورات

عبرت الجولان وبيسان
قدماً وشرقاً صاعقاً .

وبعد قليل يبدأ الطريق من هنا
على نقالة الموتى العسكرية ...
ها أنت قد وصلت إلى النهاية » .

يمجد اسحاق شاليف في هذه القصيدة (طريق فتى)
روح العسكري الصهيوني المقدام الذي عرفته أدغال الأردن ، وبيسان ، والجولان ، من خلال لغة شعرية تقريرية مباشرة تقترب من لغة التفاصيل اليومية والتجريبية التسجيلية التي أصبحت تشكل نسقاً بارزاً في الأدب الصهيوني وبهذا الصدد نورد رأي الشاعر أوريتون بارثان حول هذا الموضوع إذ يقول ، إن معظم الشعر العبري المعاصر أخذ في تناوله الظواهر العادية ، ثم تبسيط لغته الشعرية إلى لغة الحياة العادية ، مما دفع بجماليته إلى حيز الشكلية الجمالية المباشرة ، وتفسر هذه الأبيات التي أوردناها أعلاه هذا المعنى حيث نرى هشاشة مفرداتها وفقر بيانها الصوري والبلاغي ، ومن جهة أخرى نرى وضوح هذه المعايير الدالة على اتساق شكل التجربة الشعرية الصهيونية المباشرة مع الموقف الايديولوجي المنبثقة عنه . وإذا كان الشعر الصهيوني قد جند لخدمة الأهداف السياسية للحركة الصهيونية ، فإن هذا الأمر يبدو جلياً من خلال نتاجات الشعراء الصهاينة . وبمعنى آخر يؤكد الأستاذ رضا الطويل بأن الشاعر الصهيوني المعاصر والمعبر بفنه عن الاتساق

أو التماثل الإيديولوجي الموحد بين الديني والسياسي (لم يكن يعبر عن التزام بنظرية سياسية ، بقدر تعبيره عن عقيدة لها قداسة العقائد الدينية ، بل إن العنصر السياسي بمقتضى التركيب الفكري للإيديولوجية الصهيونية ، لا يمكن تمييزه عن العنصر الديني ، فقد احتفظت الحركة الصهيونية ببنية الأساطير والمفاهيم الدينية[١٣] لتحتفظ بالنهاية بوجودها المزعوم في فلسطين المحتلة . ويبدو هذا الاتجاه نحو تعميق المفاهيم الدينية والأسطورية في سياق رؤية تاريخية سياسية صهيونية ، واضحاً في القصائد التي كرست لتاريخ اليهود وفكرهم .

وحيث تتمثل التربية السياسية الصهيونية بأدق معانيها في هذه الأبيات للشاعر الصهيوني يهوذا عميحاي التي يؤكد فيها تعلقه بالوطن الصهيوني :

« هذا هو وطني ...
الذي يمكنني فيه أن أحلم دون أن أسقط
وأن أرتكب أعمالاً سيئة دون أن أضيع

١٣ــ شؤون عربية عدد خاص بفلسطين راجع الصفحة ٤١٨ ــ ٤١٩ .

وأن أهمل امرأتي دون أن أصبح معزولاً
وأن أبكي دون خجل وأن أخون وأكذب
دون أن أتعرض للهلاك ...» .

إن الفكرة المركزية في هذه القصيدة هي تجسيد لوطن الصهيونية ، والحلم به من خلال التأكيد على الظواهر الفردية والمشاعر الخاصة الوجودية ، ولقد عبر سيمون هالكين عن موالاة النص الأدبي الصهيوني ودعمه لفكرة الوطن القومي إذ أنه (لايمكن أن ننكر أن الأدب العبري ساهم في تثبيت فكرة أن اليهود هم شعب الله المختار ، كما أن هذا الأدب رسم الولاء اليهودي وطهارته ونقاءه ، وسجل أيضاً حب اليهود للتوراة ، ورفع من شأن اليهودية في التايخ الانساني)[١٤] وهذا الدور كما رآه بعض دارسي الأدب الصهيوني يمثل نسقاً أساسياً في نظام الايديولوجية الصهيونية العام .

إن الصهيوني في رأي زعماء الصهاينة هو اليهودي الذي يحس ويعترف بأنه يعيش في منفى إذا كان في بلد غير

١٤ ـــ راجع عالم الفكر المجلد الرابع عشر ـــ العدد الاول ـــ أبريل ـــ مايو ـــ يونيو . ص ١٦٣ .

اسرائيل ، ولذلك فإنه يقرر العودة إلى جبل صهيون . وبقيام الكيان الصهيوني دأب يهود الشتات على أن يخيطوا من العنصرية أشكالاً لكافة الظواهر الاجتماعية والثقافية والفكرية والأدبية بصورة مباشرة ، هذه المظاهر التي لم ترَ الرحمة والنعومة الانسانية من نظم الايديولوجية الصهيونية التعسفية الغاصبة . وهذه الأبيات الشعرية التالية تقترب من تفسير هذا المعنى فهذه الشاعرة هدفاه هركابي تبحث عن الرقة في نظام لم يقم على الرقة والوجد . وهذا خير ما نختتم به هذه المقالة المتواضعة عن التجربة الشعرية المباشرة في الكيان الصهيوني .

«أريد رجلاً بلا قوة
يأخذني بكل قلبه
ويأخذ نفسي له
كما يشتهي ويروق له
يملك مقاليدي ... برقة
بحب ليس له مثيل
من أول السماء إلى
نهايتها ...

يريني الخير ...
والشر ... وكيف
يبزغ النور» .

شكل التجربة الفنية
في شعر يهوذا عميحاي

تعرضنا في القسم الأول للمقالة السابقة إلى التجربة الشعرية الصهيونية المباشرة ، أي تلك التجربة التي بقيت فقيرة في الأسلوب الشعري والمواضيع الأدبية . إن فقر هذا الشعر يرجع إلى عدة أسباب نذكر منها مايلي :

١ ـــ عدم توفر موهبة الشعر العظيم في كيان العدو .

٢ ـــ سيطرة التربية الصهيونية وتغلغلها في النص الابداعي .

٣ ـــ اللاتجانس القومي والاجتماعي بين يهود الشتات ، وغياب وحدة الثقافة وديموقراطية الابداع الشمولية .

ونتيجة لهذه الأسباب ، فإن معظم التجارب الابداعية

للأدباء الصهاينة ، كانت موجهة في نظامها الشمولي بخطابات الإيديولوجية الصهيونية ، بما في ذلك بعض النصوص الأدبية التي صورت سلبيات الظاهرة الصهيونية في الأرض المحتلة ، وبقيت في النهاية قاصرة على معالجة الخطر الحقيقي الذي مثلته هذه الظاهرة العدوانية . أما في هذه المقالة فإننا سنحاول التعرض إلى التجربة الشعرية بنزعتها الفنية والعنصرية في تجربة يهوذا عميحاي الأدبية ، كنموذج شعري لأنها تمثل خصائص الشكل الفني في القصيدة الصهيونية من ناحية ، ثم تنوع الموضوعات الشعرية من جهة أخرى . وقبل أن نتحدث عن تجربة يهوذا عميحاي وشعره يجدر القول في هذا المقام أن نكرر ملاحظتنا السابقة ، وهي أن معظم الشعر الذي أفرزه الكيان الصهيوني حتى الآن هو سياسي بالدرجة الأولى ، يستمد موضوعاته وأسسه الفنية والفكرية من التعامل مع الصراع العربي/ الصهيوني المزمن وانعكاساته على الحياة داخل المجتمع الصهيوني (هذا إضافة إلى أن كثيراً من النماذج الشعرية التي تنحى هذا المنحى في التعبير ، فنذكر منها ما ظهر بين عامي ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧ ، وهي متأثرة إلى حد كبير

وواضح بمفاهيم صهيونية تعزف على وتر المعاناة والحصر من أجل استدرار العطف العالمي ، وإظهار أن اسرائيل محاطة بمحيط من الأعداء[١٥] وبهذه الملاحظة يمكن أن نحدد اتجاهات الشعر الصهيوني المعاصر وفق الاتجاهات التالية :

١ ــ يوجد هناك اتجاه عرف بشعر البكائيات والأحزان الزائفة ، وهو يذكر باستمرار الألم والمعاناة التي تعرض لها اليهود خلال مراحل تاريخية من حياتهم . وهو شعر مفعم بالمبالغات الكثيرة ، دَبَّجَ الشعراء الصهاينة موضوعاته بأشكال التزييف لأجل أغراض معينة ، منها التأكيد على فكرة الانتماء للوطن القومي اليهودي .

٢ ــ كسب عطف القارىء سواء أكان يهودياً أم أوربياً ، وإن طبيعة هذا الشعر ، طبيعة ميلودرامية لم تتعدَّ آفاق التجربة الشعرية المباشرة وتكريس الدعوة الصهيونية .

٣ ــ هذا الاتجاه الشعري المذكور ، ساير اتجاهاً آخر عرف قبل قيام الدولة الصهيونية ، وقد تمثل هذا الاتجاه بالبعد

---

١٥ ــ راجع شؤون عربية عدد خاص بفلسطين ص ٤٢٤ . المقالة منشورة في مجلة المعرفة السورية (من المؤلف) .

التاريخي في الكتابات الأدبية التي تستمد موضوعاتها من التاريخ اليهودي القديم وتمجد الشخصيات اليهودية القديمة مستندة في ذلك على قصص التوراة والتلمود والأسطورة الدينية .

وقد اتسق هذا الاتجاه مع أهداف الحركة الصهيونية لإقامة كيان استعماري لليهود في الأراضي العربية المحتلة ويعتبر يهوذا عميحاي أحد الشعراء الصهيونيين الذي كرس جزءاً هاماً من شعره لإحياء شخصيات وتاريخ العهد القديم .

٤ ــ كما أنه ظهر اتجاه آخر برز بعد الحربين ٦٧ ــ ٧٣ ، وقد اصطلح عليه بالاتجاه الغنائي والرومانسي الاحتجاجي ، حيث ظهرت مجموعة من الشعراء الصهاينة ، بدأت تنظر إلى الحياة داخل اسرائيل نظرة مهزوزة بالثقة ، وذلك بعدما منيت الحركة الصهيونية ، بخيبة أمل كبرى فيما يتعلق بانتصاراتها المزعومة على العرب . ولقد اقتصرت هذه التجربة على وصف

أحاسيس ذاتية مجردة ومغرقة في الأسلوبية التقريرية ، ثم الوقوف بمرارة أمام خيبات اليهودي النفسية .

٥ ـــ وأخيراً يمكن أن نتحدث عن وجود اتجاه شعري مناوىء للدولة الصهيونية ، هذا الاتجاه تمثله مجموعة من الشعراء الصهاينة عرفوا بما يسمى بالاتجاه التقدمي للطليعة الشعرية ، وقد تبلور هذا الاتجاه بشكل فعلي منذ أواسط السبعينيات .

ينابيع الرؤيا وسبل المؤثرات الأجنبية في الشعر الصهيوني المعاصر

إن الحديث عن خصائص الشعر الصهيوني المعاصر وسبل المؤثرات التي طرأت عليه ، لا يمكن فصلها مطلقاً عن الإيديولوجية السياسية للحركة الصهيونية التي تمثل الهوية والقاعدة المركزية لمصادر التجربة الشعرية في مجتمع الكيان المحتل هذا من ناحية ، أما من جهة ثانية فهناك جملة من الثقافات والاتجاهات الفكرية والفلسفية المتناقضة متمثلة

بثقافات يهودية فرنسية ، وألمانية وسلافية وإفريقية ، وانجليزية ، ولذلك فإنه من الطبيعي أن نلمس في الشعر الصهيوني المعاصر تأثيرات متعددة واتجاهات فنية مختلفة باختلاف مصادرها ، وهي عبارة عن خليط من وسائل التعبير الفنية ، كأسلوب الرمزية ، والرومانسية ، والسوريالية والواقعية الاشتراكية ، وهذا المزيج من الاتجاهات والثقافات المتعددة مثّل سبل المؤثرات الخارجية في النص الصهيوني المعاصر ، وأخيراً نضيف إلى هذه المؤثرات الخارجية ثقافات التراث العبري القديمة ، والأساطير التي أخذت عن البابليين والآشوريين والكنعانيين والفنيقيين . وفي هذا الإطار نستخلص أن أغلب الاتجاهات السائدة في الثقافة الصهيونية المعاصرة ، هو الاتجاه الذي يجمع بين تراث اليهود القديم الثقافي الأسطوري وأفكار ومبادىء القومية اليهودية التي أدت أخيراً إلى ظهور الحركة الصهيونية السياسية . وفي خضم هذه الاتجاهات نشأت موهبة عميحاي الشعرية ولقد كان للثقافة اليهودية تأثير خاص على شعره وتطوره الفني . وأخيراً نأتي على الاتجاهات التي مر بها شعر يهوذا عميحاي :

يمثل الطور الأول القصائد التي صاغت التجربة العنصرية الصهيونية في إطار تاريخي ، وقد اعتمد عميحاي في ذلك على موسوعة التراث اليهودي ، حيث نلمس في قصائده التاريخية إيماءات توراتية وحضور شخصيات يهودية وصهيونية معروفة في تاريخ اليهود (وقد عرفت الحركة الصهيونية شعراء مثل مندله ، وتشيرنيخوفسكي ، كانوا يوظفون الأحداث الشعبية القديمة في الدعوة إلى وجوب التمسك بتقاليده مهما تقادم عهد هذه التقاليد)[١٦] .

عُرف الطور الثاني لشعر يهوذا عميحاي بالاتجاه السياسي للحركة الصهيونية ، حيث تبنى الشاعر جميع مقولاتها ، وجسد طموحات الصهيونية بنزعتها العنصرية .

أما الطور الثالث فيمكن أن نحصره في اتجاه الرومانسية الجديدة ، التي جسدها عميحاي في شعره وقد تجلى ذلك في موضوعات الحب والمرأة والطبيعة التي تناولها بفنية شعرية عالية .

---

١٦ ـــ د . فؤاد علي حسنين . الأدب اليهودي المعاصر ، ص ٨٥ ـــ ٨٩ ، القاهرة معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٢ .

التجربة اليهودية والتاريخ في شعر يهوذا عميحاي

إن يهوذا عميحاي استطاع أن يصوغ التجربة الدينية والصهيونية اليهودية في إطار التاريخ اليهودي الذي امتزج بالمآسي والكوارث والتشتت . وفي القصائد التي كرسها عميحاي لموضوعات التاريخ اليهودي نجد انصهاراً مركباً وخاصاً بين الفكر الديني اليهودي القديم ، ثم بين أفكار الصهيونية السياسية المعاصرة لكن هذا الانصهار لا يمكن فك عناصره بسهولة ، نظراً لأن يهوذا عميحاي يعتمد كثيراً في كتابة أشعاره على تداعيات الرمزية الباطنية والكتابة الواقعية المباشرة ، وقد حقق من خلال ذلك كتابة القصيدة (السهل الممتنع) ، ويمكن أن نقرأ في هذه القصيدة ما يبرر هذه المقولة شعرياً ، حيث يبحث الشاعر هنا عن صلة واقعية تربطه في المكان والزمان التائهين في روحه :

«لن أكون أبداً
في المكان الذي لم أكن فيه

والمكان الذي كنت فيه
لم أكن فيه أبداً .
يتيه الشعب بعيداً عن المكان الذي ولد فيه .

إلى أن يقول :

ومهما بقيت خارج العالم الذي أعود إليه
وأرنو إليه ، فإنني للحب أبداً .
الغريب وحده سيعود إلى مكاني ، ولكنني
سأزيح كل هذه الأشياء مرة أخرى كما فعل موسى ،
بعد أن حطم الألواح الأولى » .

إنه من الجلي الواضح في هذه القصيدة اعتماد الشاعر على ذاكرته الداخلية ، التي حاولت أن تفجر الماضي اليهودي التائه بكل أحزانه ومآسيه ، مؤكداً على لا هوية المكان المنغرسة في عقل اليهودي . فنلاحظ مثلاً أن عميحاي قد ابتدأ قصيدته بجَزمٍ قاطع مُنقِّباً عن وجوده الشخصي المنفي في مكان منفي :

«لن أكون أبداً في المكان
الذي لم أكن فيه» .

كونه لم يستطع تحقيق وجوده كذات منتمية لمكان معين . وإن هذا النفي من جهة أخرى قد شمل الزمانيـة الخاصة بالمكان المعين ، ويتجلى لنا ذلك في أول البيتين ، إذ يبدو لنا شكل الانفصال بين ذات الشاعـر والزمكانيـة عميقـاً في الذاكرة . وبهذا المعنى نستنتج بأنه ليس زمن المستقبل ، وليس الماضي أو الحاضر قادراً على تصحيح وبعث هوية مكان غير متجذر في ذات الشاعر وشعبه . ولهذا فإننا نراه يعلن عن قصة الشعب الذي يتيه (اليهود) عن المكان الذي وجد فيه ، هذا الشعب الذي يأكل ، ويموت جالساً ، لكنه يتذكر دائمـاً ما جاءت به التوراة والتلمود حول الأرض الموعودة . وفي هذا الإطار يجزم عميحاي بأنه مهما بقي خارج العالم الذي يعود إليه ، ويرنو إليه لن يكتفي بوجوده ، بل سوف ينذر حياته للحب أبداً . ولكن تأتي هذه العبارة التالية لتقوض إشراق حبه ، إذ يقول : «الغريب وحده سيعود إلى مكان الشاعر» .

ولكن ياترى من هو هذا الغريب ؟ إنه في نظري ليس سوى اليهودي بذاته الذي تاه بعيداً . ولذلك فهو يحاول القيام بشيء آخر يعيد ما كان مفتقداً وضائعاً ، وهو بالطبع من خلال عودة اليهودي إلى أرض الحلم وتحقيق المعجزة الخاصة بالتفوق والنبوة اليهودية المستمرة :

«ولكنني سأزيح هذه الأشياء مرة أخرى
كما فعل موسى
بعد أن حطم الألواح الأولى» .

بهذه الصورة يقارن يهوذا عميحاي نفسه بالنبي موسى الذي سيحقق ما قد عجز عنه الآخرون ، ويصبح الحلم الشخصي والتاريخ أمراً واحداً . ونحن نود أن نشير في هذا السياق إلى أنه يتحتم على القارىء العربي الانتباه إلى الخطورة والمزالق التي يفرضها النص الأدبي الصهيوني ، ثم تعقيد بنيات الثقافة الصهيونية بفعل التوجهات الإيديولوجية الصهيونية . من هنا يظهر لنا تغلغل المسألة اليهودية والعرق في النص الصهيوني المعاصر . وعملاً بهذه الفكرة يجب أن ندرك إدراكاً

واعياً طريقة التفكير عند اليهودي الصهيوني من موقع فهمه للمسألة اليهودية والإيديولوجية الصهيونية حيث يمتزج الوهم الصهيوني بفكرة التاريخ ، وتتكسر مقاييس النسبية والموضوعية في حدود مطلق لا متعين . ولأجل هذه الأسباب فإننا نلمس انعداماً واضحاً للموضوعية في الفكر الصهيوني المعاصر مما ترتب على هذا الانعدام التناقض وعدم اليقين في الفكر الصهيوني . ومن يريد اليوم مراجعة الآداب اليهودية والصهيونية الحديثة ، سيعثر على آثار الانشطار النفسي بين ما لا يمكن القبول به نسبياً ، وبين الطموح المطلق الذي لاحدود له ولا هوية تعينه في اللامتناهي اليهودي . وإن هذا الانشطار نجده في الواقع أحد العوامل النفسية التي ضخمت العنصرية والشوفينية عند الصهيوني المعاصر ، وعلى مستوى العديد من المفاهيم والمقولات الفكرية والفلسفية وغيرها (أدى امتزاج المطلق بالنسبي لنفي شروط الظواهر الاجتماعية ثم إلى تجاهل قوانين الصراع الاجتماعي وإلى نفي حركة الواقع ، وإلى سيادة النظرة الغيبية والمثالية . ولهذا فإن التجربة الشعرية التي تنهض على أساس هذه المعطيات تقف بعيداً عن ضفاف

الواقعية)[17] . وبهذه الصورة يغدو هذا المطلق الهوية الغامضة التي تفقد فيها النسبية جدواها الواقعية . وفي هذا الخطاب الشعري ليهوذا عميحاي يمكننا أن نتابع الصيرورة المعقدة للرؤية اليهودية وقد جرفها الغموض والوهم المختلط بالتاريخ والحقيقة :

« الملك شاؤل وأنا »

(١)

« أعطوه إصبعاً ، لكنه أخذ اليد كلها .
أعطوني اليد كلها ، فلم آخذ حتى الاصبع الصغير .
بينما كان قلبي
ينوء بأحاسيسه الأولى
كان هو يروض هيجان الثيران
كانت نبضاتي مثل
قطرات الصنبور
مثل مطرقة تدق على حائط جديد
لقد كان أخي الكبير

١٧ـ راجع شؤون عربية نفس المصدر السابق ص ٤١٩ .

وقد حصلت على ثيابه المستعملة .

(٢)

كما البوصلة
سيأتي به رأسه دائماً شمال مستقبله المؤكد .
لقد أصبح قلبي مثل ساعة منبهة
ليتهيأ لاستلام سلطته .
وكلما نام أحدهم ، سيصرخ
حتى تبح أصوات الطرائد
ولن يوقفه أحداً .
الحمير وحدها ستحمل أسنانها الصفراء
في النهاية» .

وهكذا نراه يسترسل في حلمه اليهودي ، حيث يستحضر يهوذا عميحاي تاريخ شاؤل وماضي المملكة اليهودية القديمة ، ثم يقرن الماضي بالحاضر ، بل إنه يحوله إلى مجرى الحاضر ليعيشه على نحو ما ، ولا يخرج من هذا الماضي المستحضر إلا بعد أن تستفيق ذاكرة الشاعر لتعود مرة أخرى

إلى حاضر بائس يشدها إليه وهو في الوقت نفسه حقيقة نفسه
إلى أن يقول :

(٣)

متعب أنا ،
وفراشي مملكتي .
نومي عادل
وحلمي فتواي
شنقتُ ثيابي على كرسي
بانتظار الغد ...
وشنق مملكته
في إطار من الغضب الذهبي
على جدار السماء .
ذراعاي قصيرتان مثل خيط قصي
لا يكفي لربط حزمة ،
وذراعاه مثل سلاسل في ميناء
لشحنة تحمل عبر الزمن .

إنه ملك ميت .

وأنا رجل متعب » .

إذا كان بعض النقد العربي الذي تناول الأدب الصهيوني بالدراسة ، قد حكم على (الغث والسمين) في هذا الأدب بشيء من الاعدام المسبق دون أية ممارسة نقدية معرفية واعية ، فإن ذلك يرجع في نظري إلى التسرع والانفعالية الذاتية حول هذا الأدب ذي الطرائق والمشارب المعقدة .

إننا نجد في الأدب الصهيوني نزعات متعددة ، منها ما يخدم أغراض الصهيونية ، ومنها ما يعمل على كشف تناقضاتها وزيفها هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن ثمة أدباً يهودياً غير صهيوني يختلف في توجهاته ومضامينه عن الدعوات الصهيونية المعروفة . وهذا ما يحتم علينا في الواقع النظر بترو وعمق عندما نتناول بالدراسة الأدب اليهودي والصهيوني . بالرغم من وجود قواسم مشتركة بين الأدبين . ولكن هذه الملاحظة لا تعني أننا بصدد الدعوة إلى الأدب الصهيوني ، بقدر ما هي إشارة تدعونا إلى تبني معرفة دقيقة وواعية بما

ينتجه العدو ، ثم كيفية تفكيره ، وما هي الظواهر التي تعمل ضده من الداخل والخارج ، والظواهر الأخرى التي تسانده أيضاً من الداخل والخارج خاصة إذا كانت المسألة تتعلق بمشكلات الخطاب الابداعي . ومن هذا المسار يغدو التأمل العميق شرطاً أساسياً في ممارسة العملية النقدية . ذلك لأن النص الأدبي هو عبارة عن خلية عضوية حية ونتيجة لذلك تصبح العلاقة المتشكلة بين الداخل والخارج المتحركة بعمق في النص الابداعي ، تمثل أحد العناصر الهامة في تكوين هذا النص . وهكذا تأتي بعض التحاليل النقدية حول قصيدة « الملك شاؤل وأنا » بأنها صهيونية وداعية للمفاهيم السياسية التوسعية ، تعتورها في الحقيقة سطحية وتأويل مقحم على سير المعاني والرؤى في القصيدة وإذا كنا لا نخالف الرأي في بعض توجهات هذه القصيدة الخاصة بإحياء الماضي اليهودي وتذكير اليهود بتاريخهم القديم ، فإن هذا الاحياء جاء في سياق جملة من المواقف المعقدة برموزها ولغتها الشعرية ، لايمكن الحكم عليها بلغة أحادية الجانب ، ولذلك فإن الناقد عندما يكون في حضرة النص الأدبي ، عليه أولاً أن يتناول هذا النص من حيث

هو جمل تكوينية من الكلمات حاملة لمعانٍ ، وإن هذه المعاني هي الوعاء الذي يشكل المواقف والأفكار في إطار التجربة التي يعيشها الكاتب . إن قصيدة عميحاي المذكورة هذه تقوم بتقابل بين شخصيتين يهوديتين : الملك شاؤل والشاعر ، وهي مقارنة محصورة في الزمان ، أي أنها تؤرخ لأفعال زمانية أكثر مما هي تؤكد على الأفكار والأمكنة والحلول ، وبالتالي فإن موضوعها الأساسي هو فعل التشبيه بين زمن الماضي اليهودي المجيد ، ثم بين حاضر يهودي ضعيف وبائس عاجز عن أن يكون من صلب ذلك الزمن البطولي اليهودي القديم إضافة إلى بعض الأفكار الحسية الأخرى :

« ذراعاي قصيرتان مثل خيط قصير
لا يكفي لربط حزمة
وذراعاه مثل سلاسل في مينا » .

ولكن كيف يمكن أن نفسر الموقف الصهيوني في هذه القصيدة ؟ إن هذا الموقف يمكن العثور عليه في التوحيد المعقد بين الديني والسياسي في شعر يهوذا عميحاي ، من هنا فهو لا يدعو للصهيونية بشكل مباشر ، وإنما حاول في هذه القصيدة

استنطاق التاريخ اليهودي واستحضار أبطاله وقد اتخذهم كنماذج لليهودي الحقيقي في مقابل التنكر ليهود الحاضر . ولذلك فإن هذا التثوير الروحي للمسألة اليهودية من خلال قصيدة عميحاي يشكل قضية هامة في عملية الاستيقاظ والإحياء إلا أنها لا تأخذ شكلاً عدوانياً مباشراً كما في العديد من القصائد الصهيونية التسجيلية المباشرة وذلك بقدر ماتموضعت في خطاب شعري ومعرفي ينزع نحو الباطنية . وهكذا نخلص في قصيدة يهوذا عميحاي إلى مواقف متشابكة ، فمن ناحية يمجد البطل اليهودي التوراتي القديم ومن ناحية أخرى يقف موقف البائس من اليهودي المعاصر الذي لايملك القوة . وأخيراً نكتشف بأن الحلم اليهودي بقي معلقاً في طوق الهزيمة ، وأن اليهودي الصهيوني بائس لا محالة ومقضى عليه . وبالتالي فإن هذه القصيدة تسجل غياب الشخصيتين اليهوديتين (الملك شاؤل والشاعر) في مقابل حضور حاضر الصهاينة البائس :

«إنه ملك ميت

وأنا رجل متعب» .

إن قصيـدة (الملك شاؤل وأنـــا)[١٨] تجسد موقـــف الصهيوني المهزوم المتشكك في حاضره الواهن . ولكنها تعلن في سرها عن فكرة الإحياء القومي اليهودي بطريقة مشوشة الرؤية لإدراجها كرؤية للانبعاث التاريخي لليهودية إذ تبدو النزعـة الإحيائية القومية واضحة من خلال أوجه الشبـه بين يهود الماضي ويهود الحاضر المهزوم عقلياً وروحيـاً . وبالرغـم من مشاعر عميحاي بخيبته في يهود الحاضر ، فإنه يخضع قصيدته إلى الأفعال التثويرية من منطلقات العودة إلى العرق وإحياء زمن الكوارث اليهودية مستقرئاً ذلك بلغة شعرية تراثية مدججة بالرموز والإيحاءات التي يصعب في بعض الأحيـان فكهـا بسهولـة وهـي تخدم في الواقـع الحركـة الصهيونيـة عقليـاً ووجدانياً :

١٨ــ (إنه أول ملك عبري حاول أن يقود اليهود ويوحدهم ، ويخرج بهم من وضع المذلة والانحلال ، إلا أنه لم ينجح في ذلك . وظل الكنعانيون يقاومونه هم والفلسطينيون حتى قتل في معركة جلبوع (فقوعة) وقد دلت الحفريات في تل الغول على أن شاؤل لم يحكم إلا أجزاء صغيرة من فلسطين وتولى داؤد الحكم بعد شاؤل ... وعندما فتح داؤد القدس كان قد مر على بنائها ما يقارب من ثلاثة آلاف سنة ، كما كان قد مر على وجود الكنعانيين في فلسطين ما يقارب من أربعة آلاف سنة) .
عن كتاب عروبة فلسطين في التاريخ

« رأسه مثل البوصلة يهديه دائماً
إلى الشمال المؤكد لمستقبله
قلبه ضبط كساعة منبهة
لوقت تقلده الحكم » .

وتدعيماً لفكرة الإحياء القومي والوقوف على أطلال حاضر صهيوني خراب ، يصبح إرث الماضي اليهودي نقطة السر العليا التي ارتكزت عليها الصهيونية السياسية لتعيد ماضياً سحيقاً لم يكن ذات يوم له هوية الشعب والقومية التاريخية :

« لقد كان أخي الكبير
وقد حصلت على ثيابه المستعمله» .

وعلى نحو آخر تشتبك صيرورة الزمن ماضياً : حاضراً في شعر يهوذا عميحاي كما في أي شعر صهيوني آخر إذ تفقد تجانسها المنطقي وتتكسر الروابط بين المطلق الزمني والنسبي الواقعي ، ولذلك (إذا أعدنا النظر في قصيدة الملك شاؤل

وأنا ، أضحي من الميسور تبيّن فداحة هذا الخلط من ازدواجية شخصية الملك شاؤل كشخصية توراتية، اكتسبت أبعاد الشخصية السياسية ، بل إنها تعبر عن فكرة التوحد بين الديني والسياسي في رؤية يهوذا عميحاي ، وليس مجرد اكتساب الطابع السياسي للسمة الدينية لأن السمة الأساسية لبنية الفكر الصهيوني هي الاتجاه نحو الخلط والمزج بين المطلق المقدس والنسبي المحدود)[19] .

أحد ثلاثة أو أربعة في غرفة

« واحد من ثلاثة أو أربعة في غرفة
يقف دائماً أمام النافذة مرغماً على أن يرى الظلم
خلال الآلام .
والنيران فوق التل .
والشعب الذي هاجر جميعه
أعيد إلى الوطن في المساء مثل عملة صغيرة
من ثلاثة أو أربعة في غرفة .

١٩ ــ شؤون عربية نفس العدد السابق ص ٤١٩ .

يقف واحداً دائماً أمام النافذة
شعره الأسود يغطي أفكاره
من خلف الكلمات .
ومن أمامه الكلمات تتجول دون متاع .
قلوب من دون زاد ، نبوءات من دون مياه
ووضعت هناك صخور كبيرة
وظلت مغلقة مثل رسائل
لا عناوين لها ولم يستلمها أحد» .

يتابع عميحاي في هذه القصيدة الموضوع التاريخي اليهودي نفسه مفجراً ذلك من خلال ذاكرته التراثية . لكن هذه الذاكرة المشوشة والحائرة يدرك صاحبها جيداً أن أي ماض لا يمكن استرجاعه برمته ، ولا يمكن أن يتموضع بكل تدفقه وأحداثه في سيلان زمن الحاضر / المستقبل . ولهذا فإننا نلمس عمق اليأس الدفين المتأرجح بين طموح العودة إلى هذا الماضي ، ثم بين الشعور بحاضر يلفه اليأس ، ولا يمكن الارتقاء به إلى مجد الماضي البعيد ، حيث يرقد عالم اليهود المفكك وقد زال به المصير :

« قلوب من دون زاد ، نبوءات من دون مياه
ووضعت هناك صخور كبيرة
وظلت مغلقة مثل رسائل
لا عناوين لها ولم يستلمها أحد » .

أو كما في هذين البيتين اللتين يسجل من خلالهما موقفه من العودة اليهودية الصغرى كما يراها بعض الفلاسفة اليهود الذين يعتقدون بأنها تمثل المرحلة الأولى لتحقيق الوجود اليهودي ، وأن قيام الدولة اليهودية ليس سوى مرحلة مؤقتة . ومن هنا فإن الآخر غير اليهودي لن يكون ذاته الشاملة الا عندما تتحقق العودة الكبرى ، ويبعث اليهودي بعثاً توراتياً كاملاً وبالتالي فإن الرمز الخاص بالعجل الذهبي له معنى وغاية لا متناهية تمثل وجوداً دائرياً .

إن العجل الذهبي في نظر الفلاسفة اليهود التوراتيين أنصار المسألة اليهودية الجديدة ، لهو بمثابة العودة الصغرى التي مثلتها الصهيونية السياسية ، وليس غاية اليهود العظمى في العودة الكبرى ، إنه بالأحرى (أي العجل الذهبي) الرمز

الصغير لوجود اليهودي في غير موضعه الموسوي . ولذلك فإن الصهيونية كإيديولوجية وكمؤسسة تاريخية قد انتهت بمع العودة الصغرى ، وإن كل المحاولات التي تعمل باتجاه خلق سلطة للخطاب اليهودي ، لم تعد مشروعة تاريخياً . وهذا المخطط كما وضعه الفيلسوف اليهودي (ميشال تريغانُو) يبين منحى الاتجاه الديني اليهودي في فهمه للمسألة اليهودية الجديدة[٢٠] . وعن هذه الرؤية حاول عميحاي أن يعبر عنها شعرياً كما جسدت في البيتين المذكورين :

« والشعب الذي هاجر جميعه
أعيد إلى الوطن في المساء مثل عملة صغيرة » .

وعندما ندقق في هذين البيتين ، نرى أن الشاعر قد صور لنا ضحالة الشعب اليهودي ، الذي رجع مثل عملة صغيرة (يمكن أن يكون هذا التعبير رمز العودة الصغرى) لا

---

٢٠ ــ الدياسبور الغربية

الصهيونية

الهجرة الكبرى الحقيقية ← الهجرة الخاطئة ← العودة الخاطئة ← العودة الكبرى
الهجرة الصغرى ← العودة الصغرى

قيمة كبيرة تذكر لها . فعاد أشتاتاً وأجناساً هزيلة ، لاتربطها أواصر الدم والجنسية والثقافة القومية . ويرى عميحاي أيضاً ومن خلال فكرة العودة الصغرى أن اليهودي الذي عاد إلى الوطن الموعود ، مسكين وبائس لا يملك قوة الملك شاؤل أو نبوغ بن جابيرول ، وهكذا وبشعور بائس على مصير يهود الهجرة ، تخرج الكلمات على لسان الشاعر مجرورة بخطا الخيبة :

« من خلفه الكلمات
ومن أمامه الكلمات تتجول دون متاع » .

وهي متناهية في شكل تعبيري ، عبثي وسارية إلى طريق تائهة أمام مصير مجهول .

السياسة في شعر يهوذا عميحاي

حول مفهومه لعلاقة الفن بالسياسة يقول عميحاي بما معناه : أن الشعر السياسي الحقيقي ليس هو الشعر ذو الصبغة الخطابية والتسجيلية المباشرة ، وإنما هو الشعر ذو

النزعة الرؤيوية الباطنية المتعالية لأن مثل هذا الشعر يكون في نظره أعمق تأثيراً ويحمل النفس دائماً على القراءة . أي أن تعاليه يساعده كثيراً على البقاء ، وبالتالي فهو يؤدي خدمة أنفع من الشعر المباشر . إن هذه المقولة التي يؤمن بها عميحاي نجده في الواقع قد طبقها بالفعل على معظم أشعاره ، باستثناء بعض القصائد القليلة ذات الموضوعات المباشرة . وهذا يرجع بالفعل إلى اتساع دائرته الثقافية الشعرية والفنية المتكاملة ، ففي شعره يلتزم الفن بالسياسة ولا ينفصل عنها ويتداخل معها في نسق الكتابة الابداعية الموجهة . ولهذا فإن تعبير عميحاي نفسه عن مفهومه للسياسة في الفن يدل على صعوبة الفصل بينهما في أثره الشعري :

« هربت ذات مرة لا أذكر لِمَ ؟ ومن أي إله
لذا سأسافر في حياتي كما يونس
في جوف الحوت المظلم
وسوينا الأمر بيننا أنا والحوت
وكلانا في أحشاء العالم

إني لن أخرج وهو لن يقضمني» .

بمثل هذه الصور الشعرية (الطقوسية) يضيع علينا الشاعر السبب الخفي الذي دعاه للهرب
«هربت ذات مرة لا أذكر لم ؟»

ثم يعتلي بنا إلى عالم المفارقة بلغة واضحة لكنها عميقة في إيحاءاتها ومعانيها الرمزية ، ولذلك فإن القارىء لا يجد سهولة في فهم هذه القصيدة إلا إذا فك رموزها وحلل لغتها الشعرية المركبة .

إن المقارنة التي يعقدها عميحاي بينه وبين الحوت في جوفه المظلم وذلك كما فعل من قبله يونس ، لتدلّ على أن الشاعر يحاول إسقاط معتقدات التراث الديني اليهودي كدلالات ومعانٍ لأجل حل أزمة اليهودي المعاصر في العالم الذي هو فيه ولكن بصورة غامضة كما وردت في هذه الأبيات
«إني لن أخرج وهو لن يقضمني» .

وبهذا المستوى الشعري فإن الشاعر يهوذا عميحاي ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشارك بوعيه الشامل في صناعة القصيدة التي يمتزج فيها التوراتي بالسياسي ، والثقافي بالفكري ، ويحمل الشعر في النهاية روح هذه المضامين منسجمة في شكل تعبيري موحد كما تظهر في هذه الأبيات التي تصور الأرض الغريبة هذه التي تشرب الرجال وحبهم ، لكي تنسى بأنهم ليسوا منها وهي لا تستطيع الاحتفاظ بهم ، إذ يضيع كل شيء مثل تلال يهوذا المتعرجة ويصل الشاعر إلى علاقة حسية مستحيلة بينه وبين الأرض التي يذكرها :

« إفلاس .
إني أشهد العالم كله
على أنه رحم
من هذه اللحظة .. أتحلل من
ملكيتي لنفسي وأودعها داخله
كيما يتبناني .
إني أشهد رئيس الولايات المتحدة
على أنه أبي
وأشهد رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي

على أنه راع يحمي أملاكي
وأشهد الوزارة البريطانية
على أنها أسرتي
وأشهد ماوتسي تونغ
على أنه جدي .
كلهم ملزمون بمساعدتي » .

مهما كانت هذه التورية العارية التي يخفي الشاعر وراءها تناسيه لحقيقة كيانه ، فإنه لا يستطيع أن ينسى تماماً ما فعلته الحروب الاسرائيلية بعرب الأراضي المحتلة ، وهو لا يستطيع أن ينسى أيضاً المجازر الدموية التي ارتكبتها العصابات الصهيونية كالشتيرن والهاغاناه ضد عرب الأرض المحتلة . ولكي يثبت وجوداً مشروعاً لا يمتلك شرعية وجوده أساساً ، فقد عمل في هذه القصيدة (إفلاس) على التنصل من ذاته ، وحمل مسؤولية هذا الوجود المفلس العالم كله . إن أي قارىء يمتلك قدرة معقولة لفهم الأمور سيكتشف ببساطة تضمينات هذه القصيدة ، ويدرك المعنى السياسي المقصود الذي يكتنفها ،

وهنا يقع عميحاي في دائرة الاسفاف الشعري ، ولا يسجل أية (شعرية) متقدمة .

إن الإفلاس الذي يعلنه الشاعر ، ليس سوى إفلاس الحركة الصهيونية بتطلعاتها الزائفة . وليست قصيدة إفلاس غير التعبير الواضح لحقيقتها ، وكان عميحاي مذيع نشرتها بواسطة هذه اللغة الشعرية المفلسة ، وفي النهاية تعتبر هذه القصيدة من القصائد الساقطة شعرياً التي كتبها عميحاي الشاعر والعسكري الصهيوني .

الرومانسية في شعر يهوذا عميحاي

إن تجربة الرومانسية في شعر يهوذا عميحاي لها جذور واضحة من خلال التغني بالمرأة روحاً وجسداً لكن مهما اختلفت الآراء حول التمثيل الرمزي لوجودها في شعره ، فإن التدليل على معنى معين لهذا الرمز في القصيدة يغدو موضوعاً للتأويل ، إذ يمكن أن تكون هي الرمز لأرض الميعاد ، أو المرأة الحبيبة أو ربما تمثل النموذج المطلق لمصدر الخلق والإلهام . وأخيراً

يبقى رمزها عند عميحاي جامعاً للهويات الثلاث المذكورة ، لأن الأثر الفني بأدواته ورموزه يتشكل كخلية فنية متعددة الأشكال ، ولهذا السبب يبدو تحديد ملامح المرأة في شعر عميحاي الغنائي ماهية غامضة في طوق الرمزية الشعرية وهي في النهاية نموذج للمرأة الحلم / المرأة الرمز :

« وداعاً وجهك وجه الذاكرة
يتجول صاعداً من عالم الموتى . يطير ، يطير
وجه وحوش وجه الماء ، وجه الذهاب .
وغابة من الصفير
وجه الرحم ، وجه الطفل
لم تعد لنا ساعات الملامسة
لم يعد لنا أن نقول الآن . الآن
لك اسم الرياح . الهدف المرآة الخريف ،
مافشلنا في فهمه نغنيه معاً » .

يصعب تحديد وجه هذه التي يخاطبها الشاعر ، إذا كان المقصود بها المرأة الحبيبة ، أو المرأة الرمز (للأرض) أو هي كما

قلنا المرأة المثال (الربة والملهمة) ولـذلك نجدهـا في هذه القصيدة تتخذ أشكالاً متنوعـة كأشكـال المادة والطبيعـة والأشياء :

«لك اسم الرياح . مرة زوجة
الاتجاهات . الهدف . المرآة . الخريف» .

وكما أن العديد من الشعراء الصهاينة الآخرين مثـل ألترمان وشلوميسكي وأبراهام قد تغنوا كلهم بالجبال والسهول وحظائر الأبقار وقطعان الأغنام ، فإن عميخاي أيضاً تغنى بسهول الأرض المقدسة وجبالها ، وهو الذي ما نسي يوماً تذكير اليهود الصهاينة بأرضهم الموعودة ، ومن ناحية ثانية نجده قد أخذ عن هؤلاء الشعراء أساليبهم في كتابة الشعر ، وخاصة تأثره بطابعهم الغنائي في إطار لغة شعرية حديثة وتقنية جمالية متماسكة ومدعمة بثقافة أدبية من الطراز الرفيع :

« كانت في الصيف أو في أواخره
وسمعت خطواتك وأنت تمشين من الشرق إلى الغرب
للمرة الأخيرة . وفي العالم

ضاعت مناديل وكتب وأناس» .

إن صورة هذا الكائن المؤنث الذي يحاول أن يوضحها لنا الشاعر ، فجأة ما تغيب ملامحها ، ثم ينتقل بنا إلى مشهد آخر يضيع علينا طيف من أراد التعبير عنها في عالم تضيع فيه الأشياء :

« وفي العالم
ضاعت مناديل . وكتب وأناس» .

أو كما في هذه الأبيات ذات النبرة الرومانسية حين يقول :

« كيف يقول المرء : أحب بلغة الماء
وماذا نكون نحن بلغة الأرض .
وما هي الطريق والسير عليها فماذا يعني ذلك ؟
قلة ما ، الريح الأخيرة أي نبي ؟» .

إن هذا الاستشراف الشعري المتعالي في قصائد عميحاي الغنائية ، قلما وصل إليه شاعر صهيوني آخر ما بعد مرحلة الرواد (بياليك وتشيرنخوفسكي وغيرهما) أن الشاعر

في هذه الأبيات يتساءل : كيف يحب المرء بلغة الماء وماذا يكون النحن بلغة الأرض وذلك دون الإفصاح عن المعنى الذي يريده باستثناء الحب الذي يتيه في أعماق نفس حيرى مثقلة بالذكريات البعيدة والاحباطات اللامتناهية التي تتلاشى في عالم لا تعرف كيف تسلك فيه طريقها ، إلا أنه أحياناً ما يجد هذا الحب طريقه إلى التعبير المفعم بالحياة في مساحة الروح العاشق ، ويرقص مثل أمواج البحر حين تأتي عليها العاصفة :

« في منتصف هذا القرن التفتنا لبعضنا
رأيت جسدك يلقي بالظل ينتظرني بالأشرطة الجلدية لرحلة طويلة
وقد ربطت على صدري .
نطقت حمداً لافخاذك الغانية / ونطقت حمداً لوجهي العابر .
ربت على شعرك في اتجاه رحلتك لمست لحمك . نبؤة نهايتك .
لمست يدك التي لم تنم أبداً . ولمست فمك الذي يمكن أن يغني » .

إن هذا التصوير الشعري الشفاف لصورة المرأة الرمز المرأة الحبيبة تفي في الحقيقة بغرض مزدوج المرأة (الأرض — الوطن) وفي هذا السياق نجد عبارات عديدة تدل على هذا الإزدواج الخاص بالصورتين :

« يدك التي لم تنم .
في منتصف هذا القرن التقينا .

لهي في الواقع ذات دلالات واضحة حول بعد المكان (المقصود به أرض إسرائيل الموعودة) ، وعلى هذا النحو تختلط صورة المرأة المشخصة بأفخاذها بصورة المرأة (الأرض) حين يشير في السر قائلاً :

« ربت على شعرك في اتجاه رحلتك
لمست يدك التي لم تنم أبداً

الرمز والدلالة للأرض الوطن

لقد جسد عميحاي في أشعاره صورة الأرض والطبيعة والمرأة مجسدة بالمرأة نفسها ، وذلك في إطار رؤية رومانسية محدثة كان هو أحد أقطابها وممثليها البارزين في الكيان الصهيوني . وإذا كان عميحاي قد استطاع أن يخفي مشاعره الصهيونية وراء ظلال لغته الشبعرية وجمالية صوره الأدبية ، فإن العديد من الشعراء الصهاينة ذوي المواهب المتوسطة لم يتوصلوا إلى تغطية أقنعتهم بالكلمات والمعاني التسجيلية المباشرة .

إن يهوذا عميحاي شاعر يهودي ، يعرف كيف يكون صهيونياً ، ومتى يكون شاعراً ذا مقدرة شعرية عالية فهو الشاعر الذي كرس وجوده لخدمة الصهيونية بفعله السياسي وكلمته الشعرية .

إن شعر عميحاي ، شعر جميل ، لكن عقله المشدود إلى النزعة العنصرية الصهيونية لن يخدم الشعر ولا الانسانية في شيء .

الشعر الصهيوني والمستقبل

هوية المكان المغترب في الشعر الاسرائيلي المعاصر

لقد حاول اليهود الصهاينة أن يعطوا لشعار الأرض مضموناً يستمد قوته من التوراة والتلمود ومن أساطير الماضي وأهمية الارتباط بها ، ثم كيف أن الابتعاد عن هذه الأرض هو الذي دفع باليهود إلى الشتات والمنفى ، وكان الحل في نظرهم هو العودة إليها (وذلك كما نص عليه الكتاب المقدس) لأجل إحياء العهد القديم وبعث الأمة اليهودية العريقة إلى الحياة ، وكانت الحركة الصهيونية النتيجة التي آلت إلى تحقيق هذه الأفكار المثالية بقوة السلاح . لقد ظهرت الدعوة إلى التغني بأرض إسرائيل مترافقة مع ميلاد المشروع الصهيوني ، وفي هذا

السياق يهمنا أن نتعرض للشعراء الصهاينة المعاصرين وكيف تناولوا الأرض في أشعارهم ؟

إن صورة الأرض في الشعر الاسرائيلي المعاصر تحمل هويات متناقضة ، تتحرك ما بين التغني بأرض الميعاد (أرض العسل والرياحين والأحلام) ، ثم الخوف من هذه الأرض بلعنة وجودها القاسي الذي تحويه ، وهذا هو ما يميز الصورة المتناقضة للأرض (المكان) في النص الشعري الصهيوني . ويمكن أن نقسم هذه الصورة إلى قسمين :

١ ـــ صورة الأرض (الميعاد) كما جاءت في التوراة وجسدها بعض الشعراء الصهاينة الذين لم يعاصروا نشوء الكيان الصهيوني في إسرائيل . وهي صورة الأرض الحلم ومكان الميعاد الموسوي ، أو صورة الأرض اللامغتربة كما جسدتها أشعار الرواد الغنائية .

٢ ـــ صورة الأرض المغتربة في الشعر الصهيوني المعاصر وذلك كما جسدها الشعراء الصهاينة الذين تربوا في الكيان الصهيوني المحتل وتعايشوا مع الأرض التي لفظت

أجدادهم عندما تنكروا لأصحابها الحقيقيين (الكنعانيين والفلسطينيين) . وانطلاقاً من هذه الثنائية الخاصة بصورة الأرض في الشعر الصهيوني المعاصر، تتمحور المفارقة القائمة بين صورة الأرض الموعودة كما جسدتها كتب التوراة، ثم بين صورة هذه الأرض كمعطى مكاني مغترب في النص الشعري وتشكل أخيراً العناصر الشعرية الدالة على هوية المكان المغترب في القصيدة الصهيونية المكتوبة اليوم في إسرائيل . ويمكن أن نستقرىء ذلك في الأبيات التالية :

« لم تُفتح البوابة لأخي
يوم الغفران ...
بل راحت تُقفل
راحت تُقفل ماضية
على محاورها الثقيلة
وأنا أجاهد لوقف حركة الحديد
وهي تطبق على أخي من كل صوب » .

إن هذه البوابة التي راحت تُقفل ثم تُقفل يوم الغفران في وجه أخ الشاعر ، هي في نظرنا ليست سوى الشعور المنعكس لوجود ذاتي مهزوز لا جذر له في المكان الذي يشعر بوجوده فيه . وهذا ما يدل في الواقع على نزعة اغترابية وعدم شعور بالثقة المتبادلة بين الشعور الذاتي المنسجم ، ثم بين المكان كقاعدة أرضية لاستقرار الروح ، وعلى هذا النحو يبدو المكان التوراتي المحمول في الذهنية الصهيونية لا صفة لوجوده الموضوعي ، إنه مكان الذاتية المثالية الغائبة حسياً الذي يذهب أحياناً إلى نفي ذاته مثل هذه الأبيات :

« لن أكون أبداً
في المكان الذي لم أكن فيه
والمكان الذي كنت فيه
لم أكن فيه أبداً
يتيه الشعب بعيداً عن المكان الذي ولد فيه » .

إنه وبهذا المعنى كما ذكرنا سابقاً يؤكد يهوذا عميحاي

عن حالة النفي للمكان الموضعي ، حيث يعلن عن نفي ذاته في كلا المكانين ، أولاً : في المكان الذي لم يكن فيه الشاعر . ثانياً : المكان الذي كان فيه . إن هذا التقابل الصوري للمكانين يقابله بالضرورة شعور بالاغتراب المركب بين الذات المغتربة في المكانين ، ثم في المكان الآخر الخاص المحمولة فيه . وبالتالي فإن الشاعر يخلع عن ذاته جوهر الانسجام الروحي المشترك من خلال الاغتراب المزدوج (اغتراب الذات/اغتراب المكان) ثم من خلال حالة النفي المعاشة التي لم يستطع الكيان الصهيوني توليفها في دائرة التوحد الاجتماعي . وهنا يمكن التساؤل : كيف يمكن لكيان عدواني مركب أن يخلق ذاتاً منصهرة وقادرة على التوحد والتمسك بمبادىء المثل العليا في الخير والعدالة ؟ وهكذا فإن الاغتراب الصهيوني يكمن في الاغتراب المزدوج لذاته ، وهو الذي ينتج المجتمع الصهيوني ولا يمكن فصله عن المطلق التاريخي الغيبي الذي شوه العقلانية الانحلاقية لليهودي الصهيوني المعاصر :

« الأرض تتلوى

والرمال.والهضاب تميد

في صلاة فزع
رب العالم ...
عجل بنهاية الطريق » .

إن الشعور بالاغتراب عن هذه الأرض الملتوية المعذبة ، يبدو قاسماً مشتركاً في كل النصوص الشعرية الصهيونية ، وهنا تظهر لنا ملامح هذه الأرض (المكان) مفصولة إلى حد بعيد عن روح الشاعر ، حيث لا تستجيب ذاته إلى الانفعال الروحي المنسجم واللامغترب في سبيل عذاب هذه الأرض . ولذلك فإن سلبيته الحيادية هي التي باعدت بين هذا المكان وفردية الشاعر المغتربة : ويمكن أن نتابع في هذا السياق مثل هذا الشعور في أبيات الشاعرة هدفاه هركابي ، إذ تعلن عن اغترابها الكامل في أرض لا تنتمي إليها بمشاعر الروح والثقافة والانتماء الحضاري ، فهي بعدما خبرت المكان في عمقه ، خرجت في نهاية تصورها إلى العدم الذي لا يمكن أن ترجع إليه ، وهنا كما قلنا سابقاً يتمظهر الاغتراب كحالة مزدوجة تنفي ذاتها مرتين : أولاً حين تشعر باغترابها عن المكان التي هي فيه . وثانياً حين تنفصل عنه روحياً :

«أنا ...

لم يعد لي ما أرجع إليه

لا مدينة أبعث فيها حياتي

ولا رقعة أرض

لدفني في مماتي» .

وإذا كانت هذه الأبيات الأخيرة تنبىء بصراحة واقعية عن هذا الاغتراب ، فإنه أحياناً ما نصطدم بظواهر مزيفة له في بعض أدبيات الكيان الصهيوني ، حين تنزع وبتخطيط مسبق إلى تضخيم المعاناة حتى درجة الاحساس بفظاعة الكارثة ، ويفلت الاغتراب من حجمه الموضوعي إلى حيز المبالغة الشكلية :

«بعيداً ... بعيداً ...

أرى مخاوفاً

وأصوات حداد

وحطاماً مخيفاً

يعلو من الغابات

ويرسم أشباحاً» .

من بعيد ... من مكان قصي لم يرَ الشاعر سوى حطام مخيف يعلو من الغابات ، وقد أصبح هذا المكان (المرموز إليه بالغابات) يمثل صورة مرعبة ماثلة في رؤيته . ولهذا فإن حدة الاغتراب بهذا المكان تبدو على قدر كبير من المشاعر المبالغ فيها ، وهكذا فإن عبارة (من بعيد) تشير إلى أن الشاعر موجود في نقطة ما تفصله عن المكان الحطام وبذلك يسجل النقطة الثانية المعبرة عن اغترابه المكاني .

ومن هذا المنظور يتأكد لنا فشل الحركة الصهيونية في دعوتها إلى ربط اليهودي الصهيوني بالأرض على أساس أن هذا الربط يمثل مرتكزاً أساسياً لقواعد ما يسمى بالوطن القومي اليهودي . ولأجل تسخير الأدب لأغراض الحركة الصهيونية وضعت (هذه الحركة وكل الذين ساروا على دربها) نصب عينيها هدف الهاب الشعور بضرورة العودة إلى التغني بالطبيعة ، فكان أن لجأت إلى تجنيد الأدباء من شعراء وكتاب ومفكرين للترويج لهذه المقولة ، ثم الدعوة إليها وتحريض اليهود في كل مكان على قبولها واعتناقها)[٢١] . لغاية ربط هذا الشعور

٢١ـــ راجع مجلة العربي العدد ٣٠٦ مايو ١٩٨٤ ص ١٣٦ .

الرومانسي بالأرض الموعودة : لقد تغنى الشعراء الصهاينة في الوطن المحتل بالكروم والزيتون وكافة مظاهر الطبيعة ، فكانت ثورة الحماسة الشعرية مترافقة مع نشوء الروح العسكرية الصهيونية التي سادت بعد حرب (٦٧) . ولكن سرعان ما خبا الشعور بهذا الانتصار تحت ضربات المقاومة العربية ، وحل محله الشعور بالخيبة والتذمر في ظل كيان تنهشه الاضطرابات وفقدان وحدة الروح الاجتماعية والقومية العليا . وفي خضم التناقضات التي أفرزها وجود الكيان الصهيوني تأتي ظاهرة الاغتراب وعلاقتها بالمكان المغترب في مقدمة هذه التناقضات . وبهذا المنطق فقد الصهيوني اليهودي أصل الطبيعة العلائقية التي تربطه بالمكان (الأرض / الوطن) . وإن فقدان هذا المكان اللامنسجم مع الذات الصهيونية ، هو الذي شوه الجانب الحسي الخاص به وتعمم وجوده العيني والعقلي في المطلق الميثي .

« أصابك الكد قبل أن تفقد نضارتك

وعبرت الوادي المالح

حيث الأرض التي تذوي .

كل زهرة عليها وتسحق في الغد
أرض تأكل أبناءها
أرض في صدر صحفها
وجوه حتى الأمس
تتنفس » .

إن أرضاً يذوي فيها الزهر ، وتأكل أولادها لا يمكن أن يكون ذويها من رحمها ، ربما يشعر مواطن ما بالاضطهاد والظلم في أرض معينة ، ولكن أن تذهب هذه الأرض إلى أكل لحوم مواطنيها ، فهذا ما لا يجوز أن يشعر به أي مواطن ينتمي بقوة إلى هذه الأرض المعينة . وبهذه الفكرة نكتشف عمق العلاقة المغتربة بين الشاعر والأرض التي يصور الحياة المخيفة فيها وكأنها تحولت إلى مكان مسكون بالأشباح والغيلان . وإن هذا التصوير (الكوارثي) نلمسه في معظم النصوص الأدبية الصهيونية تحديداً ما بعد تأسيس دولة إسرائيل . وها هو يهوذا عميحاي مثلاً نجده في قصيدته السابقة وقد تصدى بأسلحة خفية لتحريض اليهود على العمل من أجل الوحدة اليهودية التوراتية والصهيونية السياسية : ولكنه أمام اغترابه الشامل في

المكان الذي ليس فيه ، لا يفعل سوى ممارسة شكلٍ للحلم خارج عن الواقع الذي هو فيه . كما أننا نجده في هذهِ القصيدة اللاحقة يمارس طريقته الأولى نفسها محرضاً اليهود على التمسك بأرض صهيون إلا أننا نلاحظ هذه الدعوة تسير نحو الرتابة والجمود الحامل لاغتراب خفي وسكونية متعثرة روحياً بالرغم من صلابة أبيات هذه القصيدة/الحلم :

« هذا هو وطني ...
الذي يمكنني فيه أن أحلم دون أن أسقط
وأن أرتكب أعمالاً سيئة دون أن أضيع
وأن أهمل إمرأتي دون أن أصبح معزولاً
وأن أبكي دون خجل وأن أخون وأكذب
دون أن أتعرض للهلاك ...
هذه هي الأرض التي يسكن الأموات تربتها » .

إن هذه القصيدة الحاملة ظاهرياً معاني البراءة ، يدرك شاعرها أن هذه الأرض ، حيث يرقد أمواتها تحت ترابها ، لايستطيع أن يمارس فيها حلماً عادلاً لأنها اغتصبت بالقوة وشرد

شعبها بواسطة السلاح وعلى هذا النحو يبدو هذا الوطن المثالي متجاوزاً لحدوده الواقعية وما عدا هذا الموقف السنتيمنتالي المتضمن في الأبيات الشعرية ، بقيت طاقتها الحلمية معلقة بين التأكد من حقيقة هذا الوطن ، وبين شكل لإغتراب خفي يشده عن هذا الوطن ويصده إلى الخلف .

إذا كان شعراء مرحلة الإحياء القومي قد أوجدوا وشائج رومانسية مستمدة من تاريخ اليهود الثقافي والأسطوري الديني ، وحققوا من خلال ذلك ارتباطاً ذهنياً غير معاش في الأرض الموعودة ، فإن هذه السنتيمنتالية الرومانسية ، نجدها قد فقدت ذاتها وخصائصها الغنائية التي قامت عليها في الأدب الصهيوني المعاصر . بل على العكس من تلك الصورة المثالية القديمة التي أصبحت الآن مشحونة بآثار الشك والرعب والخوف والقلق . وإليكم نموذجاً شعرياً لأحد شعراء مرحلة الإحياء القومي يبين صلة الحنين بالوطن الموعود كما جاء في التوراة ، إذ نلمس ملامح العلاقة الروحية بين المكان المتخيل والروح المستشرفة حلمياً على وجوده من خلال تدفق شعري ممسوس بشفافية رومانسية ، تظهر هنا واضحة في التصوير

الحالم بأرض فلسطين للشاعر اليهودي يعقوب فيخمان (١٨٨١ ـــ ١٩٥٨) :

« حينما كنت شاباً أخذ قلبي بمشهد السهل
أحببت اتساع أفقه الأزرق
الذي تضرب وتضيع الشمس داخله
كنت طفلاً حينما أحببت أن تطأ قدماي
عشب حقولها الندى
أن أشعر بسجادتها الخضراء النابتة » .

إننا لانستطيع نفي جمالية الشعر في هذه الأبيات ، وقوة البناء اللفظي ، كما أننا وفي اللحظة نفسها لايمكن العثور على صورة المكان المغترب . ذلك أن هذا المكان لا يحمل صورة عيانية لوجوده الجغرافي المعاش ، أي أنه يمثل فضاء حلمياً محمولاً في الذاكرة ، وبالتالي فهو مكان شعري مجرد لا يحمل هوية التموضع الاجتماعية الجغرافية . وفي مقابل هذه الصورة دعنا نتأمل في هذه الأبيات الشعرية التي جربت المكان الجغرافي (الأرض الموعودة) والذي كان معاشاً في الذاكرة في

صورة حلم / خيال . نجده الآن وقد تحول إلى مكان مغترب بذاته ، وحيداً وصامتاً أمام الذين يلهبونه يومياً بالإجرام وزرع القلق في القلوب الآمنة :

« صامتون كلهم ... يلقون ظلالهم
على الدار ...
وعلى الحائط يرتعش القلق
يضطرب مع نفسه ...
وعبر النافذة يطل الأسى » .

إن مثل هذه الصيغ الشعرية المعبرة عن اغتراب الذات الصهيونية في المكان الذي هي فيه ، تمثل اليوم نموذجاً شعرياً سائداً بات يحمل هذا المكان مهزوماً بذاته الذي تصوره اليوم الصهيونية . وبمعنى آخر فإن هذا المكان أصبح يفتقر لعنصر الانسجام وديمومة الاستقرار النفسي . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن الإنسان عندما يكون مغترباً في وطن ينتمي إليه جغرافياً وثقافياً وتاريخياً ، فإنه يغترب فيه ككائن منتم روحياً ، فيصارع اغترابه من خلال موقعه الحقوقي الوطني في أرض محددة تحمل

هويته وتراث قومه ، أما إذا أخذنا شخصاً ثانياً مغترباً في مكان لا ينتمي إليه ثقافياً وحضارياً وتراثياً ، فإن هذا الكائن يغترب لا محالة في اللاهوية المكانية والحضارية الوطنية القومية ، حيث تصبح مشكلة اغترابه مُمَيِّعة في المطلق اللاّمؤنسن التي تؤدي به أحياناً إلى دائرة العدم الضيق . وهذا الوهم الذي تصورته الحركة الصهيونية لبناء وطن قومي، لليهود في وطن ليس لهم هو الذي قاد اليهودي الصهيوني إلى فقدان شعوره بالمكان المنسجم مما شوه اغترابه وضاع منه الحس الحقيقي بالمكان .

لقد أخطأت الحركة الصهيونية عندما تصورت أنه بمجرد الحصول على أرض بالقوة ثم تفتيت شعبها الحقيقي ، يمكن بعد ذلك بناء مجتمع آخر وزرع قيم حضارية وثقافية وفكرية جديدة هي في الواقع ليس لها جذور عريقة في المكان المعين . ولكن هذه الحركة الاستعمارية العدوانية نسيت أنه لا يمكن بناء حضارة بالقوة على أنقاض حضارة أخرى هي في واقعها من أصل المكان . ولأجل كل هذه المفاهيم الخاطئة التي قامت عليها الحركة الصهيونية ، فإن ماحصدته من كوارث وعدم استقرار اجتماعي وروحي ، قد خلق عند اليهود الصهاينة

أزمات حادة وتناقضات نفسية معقدة كفقدان الثقة بالذات ، والشعور بالأمن ، وعقد أخرى اهتزت لها الخلايا العامة لسيكولوجيا المجتمع وعقله . علماً بأن إسرائيل تمتلك تقنية الحضارة المعاصرة ، من تكنولوجيا وأسلحة متطورة وتقدم في العلوم الاختبارية والتطبيقية والفيزيائية والنووية ، إلا أنها ورغم كل وسائل هذا التطور التقني ، عجزت على خلق إنسانية الإنسان اليهودي وتدعيم أخلاقه العالمية ثم بعثه كهوية حضارية وشخصية إنسانية عادلة . ولهذا فإن كل هذه المظاهر المتناقضة والمضطربة في الشخصية الصهيونية ، ومع كل الأسس الخاطئة التي نشأت عليها هذه الشخصية ، نجدها قد انعكست بوضوح في النصوص الشعرية الصهيونية بوتائر نفسية وثقافية وجمالية تختلف من مستوى شعري إلى مستوى آخر . ولعل من أخطر هذه المظاهر المتناقضة التي تجسدت في العديد من النصوص الشعرية الصهيونية سيادة اللاعقلانية في الفكر والإبداع الصهيونيين .

إن الأدب هو المرآة الصافية التي تعكس الأشياء على

حقيقتها ، وما عكسته هذه المرآة يمكن قراءته في هذه الأبيات (لأيتسيك مانجر) :

« أما الثاني فيهيل على رأسه التراب
والرماد يصرخ في غضب :
« على العنف قام عرشك ...
ومصيره أن يسقط بالعنف ...
رداء مملكتك ملوث بالدم ..
وسيلوثه دمه أيضاً » .

إن هذا الموقف النفسي الذي ذهب إلى حد الصراخ الهستيري ، أصبح من المواقف المألوفة في العديد من النصوص الشعرية الصهيونية ، وهي في معظمها تعبر عن أزمة الذات اليهودية ، ولهذا فإننا نجد هذا الشعور الدرامي قد حول مجرى القصيدة إلى كارثة سارية بمضمونها وفنيتها إلى مستنقع اللاشعر .

إن الصهيوني سوف يظل فريسة للمخاوف ، وفاقداً جمالية المكان ، مادام أنه يعيش في مجتمع قام أصلاً على

ترسيخ الكوارث والحروب ، كما أن انتاجه المعنوي والمادي سوف يظل مرتهناً بآلية المجتمع الصهيوني ، وإلا فإن أية محاولة يهودية خارج النطاق الصهيوني لن تجد جدواها إلا بكسر هذا الطوق من قبل المجتمع اليهودي أولاً وأخيراً ، وما عدا ذلك فلا سلام ولا أمل من الحركة الصهيونية والنزعة اليهودية المتطرفة . وإذا كانت الصهيونية تستمد أسرارها الباطنية من بين حدين خطيرين ساهما إلى حد هذه الساعة في شهرة قوتها ، وهما على حد تعبيرنا ، تمسكها الخاص والمزدوج بلا عقلانية التراث اليهودي أولاً ثم بأقصى تطور العقلانية العلمية المعاصرة التي سجلت في بعض نواحيها تطوراً متقدماً حتى على بعض الدول التي سبقتها في هذا المجال . وهنا يمكن أن يستغرب المرء في أمر بلد صغير جداً أصبح بمقدوره منافسة بعض الدول الكبرى ، خاصة في مجال العلوم الوضعية والتكنولوجية على وجه العموم فهل هذا هو قدر إسرائيل الطبيعي أن تصل إلى هذا المستوى ؟ أم أنه توجد قوى (قدرية) أخرى ساهمت في بناء إمبراطوريتها . ومع ذلك فهذا يرجع في تقديرنا البسيط إلى تخطيط بعض الدول المعروفة والتي لها مصالح مباشرة مع هذا

الكيان الذي عملت على تقويته بمثل هذه السرعة الزمنية .

إن أمريكا الكبرى والعظيمة قضت زهاء ثلاثة قرون لكي تصبح كما هي عليه اليوم حضارياً وتقدماً اجتماعياً . وهذا الكيان الصهيوني المكون من الشتات والذي لم يزد عمره على الخمسين عاماً نجده اليوم مضرب الأمثال لدى الأقوام التي ساعدت على زرعه في المنطقة . فيا للمفارقة العجيبة ؟ ولكن بالرغم من تمجيد قوة إسرائيل العسكرية وتطور بعض مستويات العلوم العقلية فيها ، فإن روحاً واحداً مهزوماً يشعر فيها بالضياع الروحي وفقدان الأمن الذاتي بين حدودها ، يكفي أن يدلنا في الواقع على أن قوة أي مجتمع لا تحكمها القوة المادية المنظورة وما شابهها ، وإنما تحكمها في حقيقة الأمر قوى متعددة المستويات المنظورة منها وغير المنظورة ، التي تشكل الظاهر المادي والباطن السري لهذه القوة ومستوياتها . وعلى مستوى هذا النص الأدبي يكفينا هذا العجز الروحي كما بات يشعر به اليهودي على مستوى الضعف والأخطار المحيطة بمركز القوة التي تحدثنا عنها :

« رباه .
من نوافذك تشهد آلام الخلاص
كثيفة مكثفة .
ونحن ... بين مرور معجزة وأختها
نحصي موتانا .. وقلوبنا تسأل
إلى متى ..
إلى متى يظل يومنا المأمول
على دمانا يسير » .

ربما وفي هذه الآونة (الصهيونية) لن يأتي اليوم المأمول ، ويتحقق حلم اليهودي في السلام ، إلا باندحار المؤسسة الصهيونية وزوالها . وإنه مهما قويت دكتاتورية العقل (حين تصبح بين ضفاف الجبروت والعنصرية والعدوان) فإن مصيرها النهائي هو الهزيمة والسقوط .

الشعر الاسرائيلي والمستقبل

لقد قامت إسرائيل كما قلنا منذ بداية الموضوع على أساس استعماري صرف ، ولم تكن المسألة الدينية اليهودية وأسطورة « الأرض الميعاد » ، سوى حجة مقصودة لتحقيق غاية استيطانها الاستعماري في المنطقة العربية . ووقع الاختيار على فلسطين كوطن قومي لليهود في مرحلة كانت فيها الأمة العربية ترزح تحت سلطة الاستعمار . وبدأت في فلسطين منذ سنة ١٩٤٨ مسلسلات القتل والتشريد واغتصاب الأراضي من أصحابها بواسطة الإكراه والإغراء المادي . وفي هذا السياق لا يستطيع المرء أن ينسى مجازر دير ياسين ، وكفر قاسم ، والسموع التي ذهب ضحيتها شيوخ وأطفال ، وعلى ركام

العظام الشهيدة واحتلال تراب فلسطين ، تم إنشاء الكيان الصهيوني الذي قام بواسطة المساعدات ودعم البلدان الاستعمارية آنذاك (انجلترا ، فرنسا ، أمريكا) ، وبدأت الهجرات اليهودية تتوالى على أصوات الصراخ وأزيز الرصاص وقتل الفلسطينيين ، ثم انتزاع أراضيهم بالقوة ، إلى أن تم تأسيس الكيان الصهيوني بمجتمعه ومؤسساته . لكن ومع نشوء هذا المجتمع المكوّن من أجناس الشتات ، تفجرت المشاكل الاجتماعية والسياسية والعرقية بين يهود الشرق ويهود الغرب إضافة إلى نضال عرب الأرض المحتلة الذين يدافعون عن كرامتهم وحقوقهم المغتصبة .

ونتيجة لهذه الأوضاع الجديدة بعد (سنوات العسل الأولى لدولة إسرائيل) ازدادت قوى الاضطهاد والعنف من قبل المنظمات الصهيونية ، وأصبح المجتمع الصهيوني مؤسسة عسكرية كاملة تجري فيها التدريبات العسكرية تحت شعار الحرب مستمرة مع العرب . وبسبب هذه الأوضاع وغيرها اهتزت الأحلام الصهيونية واليهودية الخاصة بالأرض الموعودة ،

وتخلخلت أعماق هذا الحلم ، بل إنه تراجع كثيراً بالنسبة إلى ما كان عليه في زمن مرحلة الإحياء القومي . وبدأت محاسبة الذات اليهودية ومراجعة بعض القضايا الصهيونية ، أو بالأحرى بدأ الشك في المسألة الصهيونية ومستقبلها من طرف العديد من التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية والسياسية الصهيونية نفسها ، ثم أيضاً وأمام الامتدادات العالمية للاعتراف بالحقوق الفلسطينية في العودة وتقرير المصير ، ازدادت تناقضات المجتمع الصهيوني حدة واضطراباً ، ولذلك لم ترَ دولته بداً في تصعيد سياسة العنف تجاه الأطراف المناوئة لوجوده . لكن وبالرغم من التحصينات التي اتخذتها الصهيونية ضد تفاقم مشاكلها الداخلية والخارجية لأجل تثبيت دعائم الأمن الاجتماعي للمجتمع اليهودي الجديد ، فإن الهجرة اليهودية الصهيونية من الداخل إلى الخارج ، قد عرفت ازدياداً ملحوظاً في السنوات الأخيرة ، عندما اكتشف اليهودي المهاجر حقيقة الكيان الصهيوني بأوضاعه وسياسته الحربية المغامرة ، وتخطيطه لمستقبل يهودي غامض تلف به المخاوف والأخطار . لقد تبخرت أحلام اليهود بالأرض الجنة في الكيان

الصهيوني وذهبت آمالهم أدراج الرياح على عتبات الديار المقدسة وعند تلال يهوذا المتعرجة انكشفت الأسطورة الدينية اليهودية مقيدة بأغلال اللاعقلانية الصهيونية . وأخيراً فإننا نجد أن كل الظواهر الصهيونية المختلفة قد انعكست بضخامة في الأدب الصهيوني المعاصر وأثرت تأثيراً سالباً على معظم مضامينه . وأمام خطورة هذا الوضع الذي بات يهدد الكيان الصهيوني عمدت الدولة الاسرائيلية إلى تنشئة أجيال خاصة تتلقى تربية يهودية خالصة ، تربية اليهودي النموذجي الذي لا يعرف الخوف ويموت في سبيل مبادىء الحركة الصهيونية السياسية . ولقد أطلقت تسمية (الصابرا) على الأجيال اليهودية الصهيونية التي نشأت في فلسطين وهي في الواقع تحوير طفيف لكلمة (تزبار) في العبرية التي تعني (صبار) في اللغة العربية .

إن جيل الصابرا حسب المزاعم الصهيونية ، جيل لا يعرف الخوف أو الضعف أو النوم ، أو الشعور بأنه قد أخطأ في أي من أعماله وبالتالي فإن شخصية (الصابرا) تبدو في

هذا المقام شبيهة (بالربوت) الصناعي Robot الذي لا يستجيب إلا لقوانين محددة له .

إن الوحشية العدوانية والبربرية المعاصرة تجاه (الآخر) غير اليهودي لهي من السمات الخاصة التي شكلت شخصية (أجيال الصابرا) . ومن هنا نستنتج هذا التصور (بأن استغراق الصابرا في اعتبار العهد القديم تاريخاً لليهود ، أمر مفهوم ، إنه يزودهم بحس الانتماء إلى شعب قديم يعرفون حياتهم بحياته ، وإن الإيمان بهذه الرابطة راسخ ، وهو يرسخ فيهم شوفينيتهم وعرقيتهم)[٢٢] وهكذا فإن الواجب الذي أوكل إلى أجيال (الصابرا) ، هو الدفاع عن الكيان الصهيوني في مقابل سحق الأعداء حتى الموت هذا من ناحية ، ثم الواجب الثاني وهو يتمثل في تغذية الروح العنصرية والشوفينية لأجل القيام بتثقيف اليهود الوافدين بأيديولوجية الحركة الصهيونية ، بفكرها وثقافتها . وقد أثرت هذه التربية بشكل خاص في الجيلين الذين تليا تأسيس الكيان الصهيوني . وعلى مستوى

٢٢ــ الشخصية الصهيونية في الرواية الانجليزية ص ١٢٨ . تأليف د . هاني الراهب .

الأدب فإننا نعثر على سيكولوجية إبداع هذه التربية في نصوص معينة تلقى مبدعوها في حداثتهم تربية (الصابرا) المشبعة بروح العدوانية والثقافة المستمدة من ازدواجية ـــ نزعة لاعقلانية دينية / ميثية وعقلانية مستنيرة علمياً وفكرياً وهذه الازدواجية التي ألمحنا إليها قبل قليل لهي القاعدة المركزية الفاعلة في استمرار الكيان الصهيوني والتي باتت تحرك قوانين الصراع في مجالات الخلق الفني والسياسي والفكري ، وهي تتحرك جميعاً من السالب إلى الايجابي ومن المستوى العدائي إلى العدمي وبصورة أخرى في الكيان الصهيوني المعاصر فإننا من وجهة نظرنا لا نستطيع أن نتحدث عن أدب مميز الهوية والإتجاه العقلانيين ، إذا لم نأخذ في الحسبان النزعات السياسية الصهيونية المختلفة الدائرة بين أجناس الشتات . وبهذا الصدد يمكننا أن نكرر مقولة عميحاي السابقة : « إن ما يكتبه الصهاينة المعاصرون اليوم لا يتعدى في حقيقة الأمر حدود السياسة » (المقصود بها طبعاً السياسة الصهيونية) ومن هذا المنطلق فإن هذا الرأي الشائع عند أغلبية الكتاب الصهاينة (وخاصة كتاب اليمين ، واليمين الصهيوني المتطرف) يعكس بصراحة مدى التداخل المعقد

بين الفن والسياسة كما تنظر له الايديولوجية الرسمية وأجهزة الدولة والإعلام الثقافي . والآن سنحاول بتواضع تناول أحد الاتجاهات الشعرية التي تدعو للعنصرية والتطرف الاجتماعي . وفي مقدمة هذا الاتجاه تأتي الشاعرة الصهيونية « نعمي شيمر ــ وإيتان إيتان) وآخرون كأكبر ممثلين لهذه النزعة العنصرية في الشعر الاسرائيلي المعاصر . ويمكن أن نتابع مباشرة أثر هذه النزعة في هذه القصيدة التي يغنيها اليوم الكبار والصغار في إسرائيل . إنها القصيدة/الأغنية التي تمثل الأخطبوط أو الشرك الذي تنصبه للعالم شاعرة كانت ترى وماتزال في سحق العرب وقتلهم واجباً صهيونياً تُمليه العقيدة الصهيونية وأنبياء العهد القديم . ولكن ومع ذلك فهي تدعو للسلام من تحت ستار إزدواجية اليهودي القائلة بسلام غامض وبحرب متواصلة :

« ربما غداً سنبحر في سفن
من ساحل إيلات حتى ساحل العاج
وعلى المدمرات القديمة
سيشحن البرتقال .

ربما بكل الممرات الضيقة غداً
سيسوق ضيغم قطيع أغنام
ربما بألف مدقة غداً
ستدق أجراس العيد » .

إنه لمن المثير للانتباه حقاً ، كيف تستطيع شاعرة صهيونية متطرفة أن تدعو للسلام ، وتستعمل المدمرات (رمز القتل) كآلية نقل مدنية لشحن البرتقال ، علماً بأنها في العديد من قصائدها الشعرية كانت داعية متقدمة للحركة الصهيونية السياسية ومناصرة لمذابح صبرا وشاتيلا ثم إبادة الفلسطينيين . وفي هذا الإطار فإن الدعاء لهذا السلام لايمكن أن تستجيب له روح الفن العليا ، ولهذا فإن شاعرة مثل (نعمي شيمر) الصهيونية لن تستطيع تقدير السلام الحقيقي مادامت ترى في بيغـن / شارون وقـوة العسكـر الاسرائـيلي خلاصة مثلها الأعلى . ولذلك فإنها فجأة ما تحملها النفس السوداء فتستسلم لها ، وتتوارى أغنيـة السلام المزعـوم بين غيمات الحقد والكراهية على العرب . وفي هذه القصيدة تظهر حقائق الصفاء خائبة ومغسولة بأخلاقية لا إنسانية :

« ماذا علينا ؟

ليذبحوا بعضهم .

ليذبح أحدهم أخاه

هذا ما قاله الجنرال روفائيل إيتان

وهو يتحدث عن الحرب العراقية الايرانية .

لقد قالها بيغن ذات يوم

كلاباً تقتل كلاباً

فلماذا نتدخل نحن ؟

ولماذا لا نكون سعداء

العرب سيظلون هم العرب

وما حدث في بيروت

كان سيحدث لنا حتماً

لو أن العرب كانوا

المنتصرين »[٢٣] .

يالخسارة هذا الشعر الذي تدفقت صوره برموز القتلة

---

٢٣ ــ عن ملحق معاريف الاسرائيلية ، ترجمة خليل السواحري ، ٢٣ / ٩ / ١٩٨٢.

الوحشيين من أمثال بيغن وروفائيل إيتان ، أفليس هذا السقوط واضحاً في هذه الأبيات ؟ سقوط بمعنى الروح والشعر معاً حتى درجة النفي الاستيطيقي والفني . ثم وبمثل هذه الصراحة الوقحة تعبر الشاعرة بوضوح عن كرهها للعرب وقد كشفت عن نفس عدوانية شتان ما بينها وبين إشراقات الروح حين يشدها الغناء الودود إلى المحبة واحترام الناس . إن المضمون الذي عبرت عنه قصيدة الشاعرة ، ينبىء بإفلاس حقيقي بات يهدد أخلاقيات المجتمع الصهيوني ويكشف مظاهر الوهم والزيف .

فأي بيت شعري مثل هذا البيت المشحون بكراهية عمياء هي أساساً ضد أي شكل لفن إنساني أصيل ؟

« العرب سيظلون هم العرب »

إن شعراً كما عبرت عنه هذه القصيدة يمثل اللاشعر عينه وإن القصيدة / الفن هي في جوهرها المتعالي أكثر بعدية معرفية / حسية من أي خطاب معرفي آخر . إن القصيدة الفن هي النموذج الابداعي للتسامي المطلق ومستودع للقيم الجمالية . وبالنهاية فإن هذه القصيدة لا تسجل أية قيمة فعلية باسم

الشعر . وعلى هذا المنوال نفسه نقدم للقارىء الكريم هذا الخطاب الشعري المفعم بروح العداوة والحامل لآثار الكارثة ، ومهما كان تأويلنا للبحث في المعنى السري المقصود في الأبيات الشعرية فإن الشاعر لا يفلح إلا في هذا المعنى الشعري المباشر المعبر عن صيغة شعرية واهية .

« يا أطفال صور وصيدا
إني أتهمكم ... ألعنكم
لأنكم مخربون ...
إرهابيون صغار ...
لو أنكم تلاميذ مجتهدون
تذهبون إلى المدارس .
لو أن لكم شفاه صغيرة تبتسم وترد بالشكر .
لقدمت ألعاباً
وقوالب شوكولا وهدايا جميلة :
لكنكم مخربون
إرهابيون صغار

تحملون الآربجي
بدل الحقائب والكتب
أطفال صور وصيدا
إني ... أتهمكم ... ألعنكم
ستنامون محطمي العظام
في الحقول في الطرقات
لا تسألوا لماذا
فإنه العقاب
والآن حان عقابكم »[٢٤] .

لست أدري كيف يبدأ المرء نقد هذه القصيدة أمام هذا الرعب الذي يخاطب الأطفال الصغار بمثل هذه اللغة القاسية والخالية من رقة الاحساس والمشاعر الانسانية الحية . لكن أي أطفال هؤلاء الذين يخاطبهم الشاعر (أفريم سيدوم) ؟ إنهم أطفال صبرا وشاتيلا أطفال الوطن الجريح ، وأطفال الطفولة الذين هبوا للدفاع عن الزهرات الصغيرة وألعابهم ، أكثر مما هم هبوا للدفاع عن مصالح الوطن العليا كما

٢٤ــ عن ملحق معاريف الاسرائيلية ١٥ / ٦ / ١٩٨٢ ، ترجمة خليل السواحري .

يراها الكبار العاقلون . ولهذا فإن الشاعر يعرف السبب الذي حملوا من أجله الآربجي ، أطفال المخيمات والمدن الصغيرة . وبالتالي فأي شر اقترفه أطفال صيدا وصور خارج الدفاع عن لعبهم الصغيرة ضد الغزاة الصهاينة المحتلين ؟ إن أفريم سيدوم يعرف الحقيقة ولا شك في ذلك . وفي هذه القصيدة فهو إما أنه يدين هؤلاء الصغار من موقع نفس فاشية حتى العمق المرضي ، وإما إنه قدم لنا كيف يفكر الصهيوني بعقلية عدوانية متطرفة حتى بالنسبة للصغار ، وجعل نفسه (أي الشاعر) متحدثاً ومتكلماً يرمز من خلال كلامه إلى حياديته حول مثل هذه التصورات المرضية التي لايمكن أن تكون من صلب مُثُل الفن العليا . إن الأخلاق وأحكامها عادة ما تضر بالنقد الفني وتحجم من موضوعيته وحياديته الايجابية في بعض الأحيان ، حيث تؤثر بعض الشيء على قيمه وتضخم من المعيارية الأخلاقية الذاتية التي تنعكس في النص المنقود . ونحن ندرك بوعي مسبق بأن الحكم الأخلاقي معرض دائماً للأهواء الشخصية سواء أكانت في لحظة انفعال سارة أو غاضبة . ولذلك فإن التعامل مع الحكم الأخلاقي حين يتسرب إلى الأثر

الخاضع لمجهر النقد ، يتطلب قدراً عالياً من الدقة الخاصة بتوجيه القيمة الأخلاقية باتجاهها الصحيح عندما تدخل بشكل أو بآخر في العملية النقدية . وإذا كانت بعض القيمة الأخلاقية قد تسربت إلى النصوص الشعرية الصهيونية التي تناولناها بين أيدينا ، فإن طبيعة التوجهات والأغراض العامة التي ترمي إليها بمعنى أو بآخر كما قدمتها لنا هذه النصوص بوعي مسبق أو غيره ، هي التي فرضت علينا توجيه قيمة الفعل الأخلاقي الموضوعي للحكم على النص الشعري الاسرائيلي والصهيوني وذلك دون أن نقع في إطار ممارسة الأحكام الانفعالية وتسليط أحكام عشوائية على النصوص المنقودة . ولكن مثل هذه القصيدة وغيرها فإنها تمنع عليك الدخول بموضوعية نقدية إلى عوالمها الداخلية . بل على العكس من ذلك فإن أغلب القصائد الصهيونية التي درسناها (خاصة منها القصائد التقريرية) يشتبك داخلها بخارجها بحكم تحكم الخطاب الشعري المباشر ذي العلاقة العضوية بخلايا السياسة الصهيونية التي ترسمها الدولة الاسرائيلية لأجل دعم آدابها الرسمية .

إن قصيدة مثل قصيدة الأطفال الصغار (لأفريم سيدوم) تعتبر نموذجاً للشعر الساقط فنياً وموضوعياً وبعيدة عن الحقول المغناطيسية للذائقة النقدية التي تسند لغة النقد حين تتحرك بعناصر النص المنقود إلى دوائر الجمالية والإشراق .

إذن ؟ وبمثل هذه اللغة لا يمكن أن نكتب الشعر

« إني أتهمكم ... ألعنكم
ستنامون محطمي العظام
في الحقول في الطرقات » .

ياهذا الظلم الذي أسقطه الشاعر بأسم جمالية الشعر وسموه على أرواح أطفال الجنوب اللبناني المدافعين عن أحلامهم الصغيرة . فها هو الصهيوني قد جاء إلى بلادهم ليعاقبهم ويحرمهم من الشوكولا لأنهم أولاد مخربون . ومن هذا الموقع العدائي النابع من مضمون هذه القصيدة فإن أفريم سيدوم يضع نفسه في مرتبة العصابات الصهيونية ، ويكرس شعره في سبيل لا يفضي إلى سبيل الشعر ، وتصبح لغة التهديد والتخريب ، والعنف مفاتيح لكتابة اللاشعر :

« كل النساء في صيدا وصور
كل الأمهات ... كل الحوامل
كل المسنين ... وكل الأرامل
ها نحن قادمون لنعاقبكم
لنقتص منكم .
فرجالكم مخربون عناد
وأبناؤكم صيادو دبابات
ومجنزرات »[٢٥] .

إن مثل هذا الشعر الذي يبدعه الكتاب الصهاينة ، يمثل صيرورة اللافن ، وذوق الجمالية الساقط ، حيث لا يقودك هذا الشعر إلى مواقف الجمال المشرقة . إنه بالأحرى يضعك في عالم كثيف بالكوارث والسواد ، يَحُولُ بينك وبين صور الآفاق الخضر على حد تعبير (رامبو) . ولهذا فإننا لا نصل إلى مرتبة الجمالية الانسانية في الشعر الصهيوني المعاصر التي تمثل لا محالة الشرط الغائب والمنفي في النص الأدبي الصهيوني .

---

٢٥ ـــ عن ملحق معاريف الاسرائيلية ، ترجمة خليل السواحري .

وهذه الأبيات الشعرية التالية تمثل هذه الجمالية الانسانية الغائبة :

« نامت الطفلة الصغيرة
ذات الرداء الأحمر
بلون الدماء التي تسيل
من جسدها النحيل الصغير
وتسألني لماذا ...؟
لو لم يكن والدك مخرباً عنيداً
وشقيقك اللعين
صياد دبابات / مجنزرات
لأحببتك يا طفلتي الصغيرة »[٢٦] .

إننا صادفنا الكثير من الشعر الصهيوني الذي يعبر بمثل هذه اللغة السطحية ذات المضامين العدوانية، لذلك سوف لا نستغرب من أمر الواقع إذا قلنا أن الكيان الصهيوني هو الذي يفرز هذا الشعر حصراً وإن الدولة الاسرائيلية

---

٢٦ ــ عن ملحق معاريف الاسرائيلية ، المرجع السابق نفسه ، ترجمة خليل السواحري .

بقوتها العسكرية وبنظم تربيتها العنصرية ، نجدها تسعى دائماً إلى تمجيد ممارسة الرعب والقتل كمثل حية للحفاظ على كينونتها الصهيونية . وبصورة ثانية فإن المجال يصبح ضيقاً للحديث عن شعر إنساني إذا ما وقع في هذا الوجود الزائف . إن المتتبع للأدب ومساره في الكيان الصهيوني منذ حرب ٦٧ وحتى حرب ٨٢ ، يلاحظ بشكل لا يقبل الريب تدهور جل هذا الأدب ، وانحطاط الأخلاق الصهيونية ، ثم ضياع الذات أمام مصير مجهول . خاصة بعد حرب ٧٣ التي تلاها كما ذكرنا سابقاً انكسار في الطموح الصهيوني ، حيث اهتزت الصورة القديمة للبطل اليهودي الصهيوني الذي لايقهر . وكانت ظاهرة الأحزان (الموضعية) أحد سمات التقهقر الذاتي الذي اشتبك بصيغ الفن والأدب وأثر فيهما بعد انتهاء الحرب مباشرة . وها هي هذه الذات الصهيونية تزداد تراجعاً ، إذ نلاحظ انشطاراً خفياً للرؤية والتفكير الصهيونيين بدأ يتضح شيئاً فشيئاً . وربما نلاحظ ذلك بوتائر متزايدة ومتباينة في القصائد الأخيرة أثناء وبعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان . وإذا كنا لا نؤمن بالتحولات السريعة في تغير الاتجاهات الفنية والأدبية في علاقاتها المباشرة

بالأحداث السياسية ، لكن هذه النصوص الأدبية المشوشة والمرتكبة في مضامينها تبين لنا مدى هذه التحولات السريعة في الاتجاهات الأدبية والفنية الصهيونية المباشرة . وهذه القصيدة التي تصف أوضاع الحرب وموقف الصهيوني منها وهي للشاعر الصهيوني (أبشلوم كور) تجسد هذا التحول والتراجع بموضوعات الشعر إلى درجة الاسفاف والتبلد الروحي :

« أخذت منظمة التحرير مئات
الآلاف من الرهائن
وفي بيروت الغربية
والعالم الجبان يصرخ :
أنقذوا الخاطفين
حافظوا على الشيكل
هذا ماقاله ايريدور
فسوف تحتاجونه للمشتريات
في بيروت
هناك في جنوب لبنان

يهتفون لشارون وبيغن
لأننا نحن الاسرائيليين
نكره بعمق
أولئك الذين رفعوا لواء المقاومة »[٢٧] .

لست أدري إذا كان للشعر نصيب في هذه الأبيات التي يخلو خطابها من أية قيمة فنية متعالية (ونحن آخذين بعين الاعتبار أننا نقرؤها مترجمة إلى لغتنا العربية) فلا قداسة للفظة في هذا الخطاب / البيان ولا طقس للتعبير الفني حملته إلينا صور هذه القصيدة.. باستثناء التأكيد على هذه اللغة الشعرية الحاملة حقدها على منظمة التحرير والمقاتلين الفلسطينيين . فهل قرأتم ياسادتي سابقاً قصيدة تروج للعملة العادية وتجعل من نفسها متكلماً باسم بورصة المالية ؟

إن هذا الخطاب (الشعري) الخالي من أدنى مستوى لضرورات المعرفة والتربية الفنية والجمالية يمثل في هذا اليوم فضيحة في حق الفن وضرورته الانسانية ووظيفته المشرقة التي

٢٧ـــ عن ملحق معاريف الأسبوعية ، ١٣ أيلول ١٩٨٢ ، ترجمة خليل السواحري .

(دائماً تحرك الانسان بكليته وتسمح للـ «أنا» بالتماثل لحياة الآخرين وتمكنها مما لم تكنه ، ومما هي جديرة بأن تكنه . والفن يسمح للانسان بأن يفهم الواقع ، وهو لا يساعده على تحمل هذا الواقع فحسب ، بل يَزِيدُهُ تصميماً على جعله أكثر إنسانية وأكثر جدارة بالجنس البشري)[٢٨] . ولكن هيهات أن تستجيب ثقافة الحركة الصهيونية لمثل هذه الضرورة الانسانية التي تفرضها ضرورة الفن وترتقي إلى دور المثل العليا للخير. إن الشاعر الصهيوني العنصري ، وكاتب الرواية المتحيز للدولة الاسرائيلية ، وعالم الاجتماع والسياسي إلخ ... جميعهم يمتهنون اليوم لغة واحدة مستمدة من نظرية (أ ـــ ب ـــ ج) الصهيونية السياسية . وبالتالي فإن الروح المبدع الحقيقي منفي عن الكثير من التجارب الأدبية الصهيونية ، بل إننا نجده في الواقع متلاشياً في التناقضات ، وفاقداً لهوية التمايز في النص الأدبي المتحرك . وحول هذه الفكرة الأخيرة نقول ، بأن الفن الذي لا يستطيع أن يتسامى فوق مظاهر العدوان والشرور ،

---

٢٨ ـــ راجع ضرورة الفن ص ٥٦ . تأليف أرنست فيشر . ترجمة د . ميشال سليمان .

سوف يظل فناً دون مستوى التعالي الإبداعي ولا يمكن أن يبلغ نقطة الخلود . وفي هذه القصيدة التي سنقدم بعض أبياتها الآن وهي للشاعر الصهيوني (يونثان غيفن) بعنوان (دماء صبرا وشاتيلا) لهي تعتبر في نظرنا إشارة واضحة لكشف تدني شعر الحركة الصهيونية وهي كمثل هذه القصيدة التي صورت لنا بشاعة المجزرة الرهيبة التي ذهب ضحيتها الأطفال والشيوخ ، والعجز . وقد عرض الشاعر لوصفها بشكل بارد ومتحيز إلى المبررات الصهيونية الخاصة بتبرير موقفها الدفاعي تحت شعار : اقتلوا كل المخربين أينما كانوا .

إن مجزرة صبرا وشاتيلا رمز لأسطورة الفعل الوحشي ونموذج للبربرية المعاصرة . وأخيراً ندعوكم أن تتمعنوا في هذه الأبيات ونترك حكم الحقيقة بيننا وبين الشاعر الذي كتب القصيدة ، وبين العالم الانساني أجمع .

« هناك في مقهى بكريات شمونة
كان جمهور غفير يجلس أمام
الشاشة الصغيرة

عن الأسرى الفلسطينيين .
صرخ الجمهور وصرخت أنا أيضاً
ابتهاجاً بالحشد الجميل ،
حيث الارهابيون
قتلة أطفال معالوت
في طريقهم إلى المعتقل .
أقتلوهم صرخ أحدهم
صرخنا جميعاً .
أحصدوهم ... اذبحوهم ... أقتلوهم
نريد أن نرى
دماء من قتلوا أطفال معالوت .
في صبرا وشاتيلا
شاهدت دماء كثيرة
فارتاحت نفسي وارتاح أطفال معالوت
في قبورهم »[٢٩] .

٢٩ــ راجع ملحق يديعوت أحرونوت ٢٢ / ١٠ ١٩٨٢ . ترجمة خليل السواحري .

مرة أخرى نقول يا لسخرية القدر حين يصيب شعراً مثل هذا الشعر بمرض روحي ، وسادية نفس غير طبيعية وهكذا وبهذه العقلية العدوانية ، فإن كل شيء يتشوه ، ويتخرب الروح البشري بسرعة . ومن جهة أخرى فإنه يصعب على ناقد تناول هذا الشعر وإنصافه بروح النقد الموضوعية . وبموجز العبارة فإن النقد الأدبي البناء لا يمكن أن يستمد جماليته وجدواه من الفن الفراغ ، فن الرؤى السوداء والخوف والرعب الأجوف . وهنا نلتقي على حد تعبير الكاتب الفرنسي (تين) حول هذه النظرة : عندما يسد الكاتب كل المنافذ ، ويسجن القارىء ضمن نوافذ مغلقة في قصة أو قصيدة فريدة وجهاً لوجه مع وحش أو مجنون أو مريض فإن هذا القارىء يقع فريسة الهلع وغالباً ما يصاب بالغثيان . وإذا كانت عبارة (تين) هذه تسد أبوابها أمام الفن الأسود وتدعو إلى التفاؤلية وواقعية النص الأدبي ، فإن أدب الحركة الصهيونية وبحكم تركيبته قد انحاز إلى الاختيار الأول ، مجسداً بذلك قوانين العدوانية والحقد تجاه العرب بصورة لا إنسانية فجة لا يقبلها أي ضمير بشري عادل ، واندياحاً مع

هذه الفكرة نقدم ما يدعمها حسب تعبير الروائي الصهيوني المعروف (عاموزعوز) .

- إن العربي يهدد الكيان الصهيوني انطلاقاً من أفكار بدائية وبلا سبب أو منطق . وإن من الضروري أن يستعد اليهود لدحر العرب في عقر دارهم بصفتهم أي اليهود ــ أمة متحضرة تصارع أمة متخلفة ، وذلك كما جاء في روايته (في مكان ما) . وهذا الشعور نجده واقعياً لدى كل أفراد المجتمع الصهيوني الذين عبأتهم الحركة الصهيونية بالنظريات العرقية والشوفينية المتطرفة.. وهذا الشعور كما عبر عنه الروائي عاموز ، خاص فقط بسحق العرب . كل العرب في مقابل تأكيد الوجود الصهيوني المطلق في أي زمان وفي أي مكان تراه الصهيونية أرضاً موعودة لها :

« أطردوا كل الخونة
من البلاد اليهودية
لا نريد هنا
إلا كل صهيوني حقيقي

يصرخ أمام الملأ
يهودا والسامرة لنا
وأنتم سكان يهودا والسامرة
اجلسوا بصمت ، بهدوء
وقولوا شكراً
لأنكم لم ترحلوا بعد
إلى ماوراء البحار »[٣٠] .

هل يجد المرء صراحة تدعو إلى سياسة الاستيطان الصهيوني ومبدئه الاستعماري أكثر مما عبرت عنه هذه الأبيات بمثل هذه الصراحة ؟ وقد تجلت بروح قامعة لغيرها وهي تهدده بالبقاء صامتاً وإلا فإن مصيره الحتف والتهجير :

« لا نريد هنا
إلّا كُل صهيوني حقيقي » ← صورة باعثة على تأكيد الذات العنصرية

« وأنتم سكان يهودا والسامرة
اجلسوا بصمت ، بهدوء

٣٠— راجع ملحق يديعوت احرونوت ، ترجمة خليل السواحري بتاريخ ٢٢ / ١٠ / ١٩٨٠ . عن الرأي الأردنية .

وقولوا شكراً
لأنكم لم ترحلوا بعد
إلى ما وراء البحار».

صورة دالة على غير الصهاينة المهددين بالترحيل إذا لم يلتزموا الصمت ويتركوا لهم السامرة دون جدال.

إن هذا الشعر كما أكدنا عليه بمعنى أو بآخر، يعتبر اليوم جزءاً من الأدب المجند للمسألة الصهيونية بأهدافها التوسعية لزرع يهود العالم في رقعة من الأرض العربية. وفي هذا الإطار يقول الكاتب الصهيوني أهارون ميجيد عن دور الأدب في مواجهة التحديات المفروضة على الكيان الصهيوني معبراً كالتالي: إن المجتمع الاسرائيلي الحالي لم يرتق إلى آمال الرواد الأوائل، ولم يترجم أحلامهم إلى حقيقة، وأن الحرب في رأيه قد جلبت لإسرائيل كل ما هو عظيم، فهي تجعلها أشد تماسكاً والتصاقاً. وإن الحياة في المستعمرات والاستيطان هو واجب الاسرائيلي الأول، وأن من يبتعد عن الكيبوتس لن يكون مصيرة سوى الضياع وفقدان الشخصية. ولكن الخطير في

الأمر وهو أن مثل هذا الادعاء الذي يروج له بعض الكتاب الصهاينة بأقلامهم ، يجد صدى واهتماماً واسعاً في أوساط الأعلام الرسمي الغربي ومؤسسات الأعلام الصهيوني الخارجية . وعلى هذا النحو نجد اليوم في أوروبا الغربية صدى كبيراً للآداب الصهيونية واستحساناً لموضوعاتها هزيلها وعظيمها بكل ما تحمله من قيم العداوة والعنصرية وذلك بمعزل عن النقد الموضوعي الذي لا يتجرأ كثيراً لتناولها وفضح الزائف منها ، ثم إبطال مفعول الألغام المحيطة بها إذن ؟ فهي الممنوع الذي يجب عدم تداوله إلا بإيماءة من العيون الصهيونية الساهرة على أعلام الغرب والمتحكمة إلى حدود معينة في إدارة مفاتيحه،وإن هذا الممنوع الصهيوني المقدس في الغرب خاصة، يشكل أحد مراكز القوة للدولة الاسرائيلية والنظرية الصهيونية في جانبها العقلاني المحكم الروابط . ومثل هذه القصة التالية التي نقدمها لكم تعتبر نموذجاً مقبولاً ومتقدماً للأدب الصهيوني خارج إسرائيل ، حيث نجد في هذه القصة (إمرأة صغيرة) لإسحاق أورباز ، حين يصور جزءاً من الأرض العربية عبارة عن صحراء ، وأن من الأرض العربية

عبارة عن صحراء ، وأن من عليها من البشر ليسوا سوى أشباحٍ مزعجةٍ (المقصود بهم العرب) وأن الوجود الحقيقي هو وجوده هو وامرأته التي يرمز إليها بإسرائيل ، التي يطمح أن يولّدها حتى الأرض بنسلها . وهناك أيضاً قصص أخرى وقصص للأطفال وأشعار متنوعة كلها تصب في موضوعات تمجيد القوة الإسرائيلية . وباختصار فإن للآداب الصهيونية نوعين للكتابة .. أولاً أدب صهيوني موجه إلى الداخل (خاص بتلقين القيم والموروثات الدينية اليهودي والسياسية الصهيونية للذات اليهودية الصهيونية) . ثانياً : أدب موجه إلى الخارج (أغلب موضوعاته موجهة بلغة أكثر شمولية إلى مخاطبة العالم ، حيث يركز مبدعوها على قوة الحضارة الصهيونية ، وطموحها لأجل خير العالم وهي في النهاية لا تريد سوى السلام مع العرب الذين لا يرغبون فيه) . إلا أنه وللحقيقة الموضوعية أيضاً توجد بعض الآداب اليهودية الأخرى لا تصب في مجرى نظرية الدولة الاسرائيلية ، بل إنها تتعارض معها من مستوى الرفض والاحتجاج الإيجابي . وهذا نموذج يوضح ذلك بلغة احتجاجية :

« لكم أكرهها هذه القلعة الصماء
ففوق حجارتها سالت دماؤنا سدى
أرجوكم
أذكروا إعلانات الحداد
أذكروا الدبابات والمواقع
وكل الرجال الذين سقطوا »[٣١] .

إن مثل هذا الشعر يشكل هزيمة للصهيونية التي لا تريد الاحتفال به، وهي تعتبره ردة تجاه التقهقر والانهزام، وهذا ما سنبحثه بعد قليل حول شعر الرفض الصهيوني والاحتجاج ، والمستقبل الذي ينتظر هذا الشعر .

٣١ـ راجع ملحق على همشمار ١١ / ٦ / ١٩٨٢ . ترجمة خليل السواحري .
عن الرأي الأردنية

شعر الرفض الصهيوني، الاحتجاج والمستقبل

بعد حرب تشرين التحريرية التي هزت الكيان الصهيوني وخلخلت ركائزه المادية وآفاقه الاستراتيجية التوسعية في المنطقة العربية ، اشتدت حدة الصراعات الداخلية السياسية والطائفية ، حيث ظهرت على السطح تقسيمات عرقية وتكتلات سياسية واجتماعية تناحرية ، زادت في الواقع من تعميق تناقضات هذا الكيان التي نمت في الأصل مع نشأة وجوده . فاليهود الغربيون مثلاً يعتبرون أنفسهم يهود الحضارة والتقدم إذ أن من حقهم الخاص الحصول والتحكم في الامتيازات المادية والطبقية ، ثم إن اليهود الشرقيين ليسوا في نظرهم سوى قطيع من اليهود المتخلفين . وفي ظل هذه

التناقضات أضافه إلى الهزة العميقة التي خلفتها حرب تشرين (٧٣) ذهبت مشاريع الصهيونيـة (كالعدالـة الاجتماعيـة وإحقاق السلام ، وقتل النزعة العنصرية) ، أدراج الرياح وعلى أثرها تكشفت حقائق الوجود الصهيوني في العراء . وأمام هذا السقوط الإيديولوجي والمعنوي الشامل للمؤسسة الصهيونية ، بدأت هجرة اليهود المعاكسة (من الداخل) تأخذ شكلاً خطيراً فضحت النموذج الصهيوني لسياسة الاستيطان وتأتي هجرة يهود الاتحاد السوفييتي من داخل إسرائيل ، كضربة قاضية ، عرت المزاعم الصهيونية المتعلقة بسياسة التجانس العرقي وفلسفة القومية الصهيونية السياسية الجديدة . هؤلاء اليهود الروس وغيرهم من الشتات وقعوا تحت تأثير الدعاية الصهيونية وإغراءاتها منذ بداية التأسيس . لكن سرعان ما اكتشفوا الحقيقة ، بعدما استقروا عدة شهـور في الكيـان المحتل ، ومن خلال ممارسات الدولة والمؤسسات الصهيونية الخاصة بتطبيق الديموقراطية ، والحق الطبقي المشروع والقضاء على النزعات العرقية والعنصرية بين كافة طوائف الشتات ، التي لم يتم تطبيقها العملي المخطط في الواقع ، فطن اليهود الروس

خاصة ، إلى حجم الغلطة التي ارتكبوها في حق وطنهم الأصلي ، حيث يسود نظام للديموقراطية الاجتماعية والعدالة الطبقية لم يجدوا نظيره المزعوم في الكيان الصهيوني . ولعل الجحيم الذي وصفوه (الجحيم النفسي ، والغربة) في مقابلاتهم مع الكاتب / الصحفي فرديناد فريدمان وفي كتاب أعده الكاتب يحمل عنوان (هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي) حيث جسد العذابات التي عانوا منها كثيراً في إسرائيل ، إضافة إلى قلقهم المستمر وشعورهم الغامض بلا هوية مستقبلهم ، كل هذه العوامل جعلتهم يغادرون الكيان الصهيوني إلى بقاع أخرى من العالم ؛ بل إن بعضاً منهم لجأ إلى طلب الصفح والغفران لدى سلطات الاتحاد السوفييتي ، لأجل السماح لهم بالدخول والعودة إلى وطنهم الأصلي ، وبسبب هذه العوامل الداخلية والخارجية منها في إسرائيل ، اشتدت ظاهرة الرفض والاحتجاج عند بعض القطاعات الاجتماعية اليهودية التي لم تكن لها أهمية كبيرة منذ البداية ، ولكن سرعان ما اتسعت دوائرها أخيراً بفعل الحرب الصهيونية / العربية التي دارت رحاها في لبنان . وقد تجلى هذا الاحتجاج أكثر فأكثر في العديد من الأدبيات

الصهيونيـة واليهوديـة وخـاصة أدبيـات الكتـاب والشعـراء التقدميين اليهود . ونحن إذا كنا حتى حد هذه الساعة نقف بحذر تجاه تيار الرفض المناوىء للسياسة الصهيونية المعاصرة فذلك من قبيل أن هذا التيار الأدبي والفني الاحتجاجي ، مايزال متشابكاً في نواحٍ معينـة مع سيـاسات الأخطبـوط الصهيوني المحتل . بل قل إنه يلتقي معه في بعض النقاط المعينة المتعلقة بالوجود الصهيوني بشكل عام في المنطقة العربية : وبالتالي فإن هذا التيار الأدبي الرافض لم يشكل بعد قوة ضاربة تستطيع منع أو تحجيم الممارسات الصهيونية التعسفية ضد العرب في أراضيهم . ومن ناحية ثانية إذا كانت أيضاً تجربة الأحزان الموضعية قد جسدت موقفاً رومانسياً سلبيـاً تجاه الحروب الصهيونية العربية ووقفت موقف الحياد السلبي تجاه الظواهر الصهيونية الخطيرة التي تمارسها بقوة السلاح وسياسة ديموقراطية مصطنعة ، فإن تجربة الرفض اليهودي الواسعة التي تبلورت أكثر فأكثر بعد حرب الثمانين يوماً في لبنان ، ذهبت في الحقيقة إلى خطوة أبعد عندما نددت (ولو لأمر يخص الشؤون الخاصة للمعارضة الاسرائيلية) بالخطر الذي أصبح

يهدد أمن الاسرائيلي ، من جراء تطرف السياسة العسكرية الاسرائيلية والتوسعية . ولقد انعكس هذا الاحتجاج الإيجابي في العديد من الآثار العبرية الحديثة . ولأكثر من سبب أو آخر فإن حركة أنصار الرفض والاحتجاج أصبحت تشكل اليوم نافذة جديدة يمكن الاطلال منها على المستقبل الذي ينتظر إسرائيل . وفي هذا الباب المتواضع سنحاول أن نتعرض إلى بعض الأدبيات الشعرية اليهودية (الرافضة) أو بالأحرى المتناقضة مع سياسة الدولة الاسرائيلية العدوانية وتورطها في حرب لبنان الأخيرة . وبهذا الصدد حتى وإن كان هذا الرفض لا يخدم أموراً كثيرة ، فإنه على أية حال يحاول أن يقدم صورة ما عن بعض المسائل الحساسة في مجتمع الدولة الاسرائيلية .

لم تكن الحرب الأخيرة نزهة وديعة في جنوب لبنان وفي بيروت الغربية للجندي الصهيوني واليهودي لقد وقفت بيروت شامخة بأبطالها وشعبها فأذاقت المعتدي جوهـــر الخوف والرعب . وها هو الجنوب العربي اللبناني مايزال مستمراً في حرب العصابات الاستنزافية التي يخوضهات مع العدو بكل

بسالة وبطولية وطنية . هذا الجنوب الصغير / العظيم هو اليوم نموذج أصيل لتحرير الكرامة الوطنية والقومية العربية ، وإن العرب اليوم هم في حاجة إلى أكثر من جنوب مقاتل ضد العدو الصهيوني . إن الجنوب اللبناني في هذا اليوم هو أخ لغيرنيكا الاسبانية (التي قاومت النازية الهتليرية والفاشية الفرانكاوية) وأخ لهانوي الفيتنامية عندما تصدت للحرب الامبريالية الأمريكية . إن الجنوب اليوم هو القصيدة التي تكتب نفسها بيديها القويتين ، بعدما كلت أو ربما تعبت الأقلام والرؤى . وأخيراً فإن هذا التصدي اللبناني شكل للعدو الصهيوني رعباً حقيقياً وأخل بالموازين العسكرية والسياسية لإسرائيل التي سحبت قواتها من الجنوب نتيجة لتورطها ونزهتها الفاسدة في وطن لم تحصل منه على إذن بالدخول . لقد سقطت كل حسابات إسرائيل لأجل بقائها في الجنوب اللبناني ، عندما قادها الطمع إلى احتلال مزيد من الجغرافيا العربية ، لأنها اكتشفت بعد ذلك خطورة الأعماق الداخلية للإنسان حينما يداس عليها. هذا الانسان الذي يتشبث بالوطن وشرفه ، يصبح الموت في نظره الطريق الأوحد للخلاص

والحرية ، وهذه الكلمة العظيمة سوف تظل الخطر الأزلي الذي يهدد الصهيونية إلى يومها الأخير . إن من يقتلع حرية غيره من جذورها ، هو الآخر يأتيه يوم تذهب فيه حريته ويفقد إنسانيته . وأخيراً فإن أزمة الكيان الصهيوني في حرب لبنان وما ترتبت عليه الأمور داخل إسرائيل وخارجها ، قد زاد الطين بلة ، مما صعد ظاهرة الاحتجاج والرفض الصهيوني في حدوده الضيقة ثم الرفض اليهودي المعارض في حدود أخرى أوسع ، هذا الرفض المتباين المستويات سنقرؤه في هذه الأبيات التالية في قصيدة (أعيدوا هذه الأوسمة) للشاعر والأديب الاسرائيلي روبيك روزنتال :

« أعيدوا هذه الأوسمة
كل الأوسمة
لمن بعث إليكم
فالذين بعثوا الأوسمة للجنود
هم الذين أرسلوا الجنود للحرب
أعيدوا لهم الأوسمة

أوسمة العار والأكاذيب الكبيرة
كل الأوسمة يجب أن توضع
في طرود تحمل أرقام الضحايا الذين سقطوا
هناك في الشقيف
في الدامور
في صور
في عين الحلوة
أعيدوا لهم الأوسمة
أوسمة الخزي والعار »[٣٢] .

بالرغم من هذه اللغة الخطابية ومباشرة الحدث الشعري ، استطاعت هذه القصيدة أن تشكل نسقاً معقولاً بين مادتها الشعرية ولغتها من خلال شفافية صورية ملحوظة ، وهي تسجل هذا الموقف الاحتجاجي ضد تورط إسرائيل العسكري في لبنان ، وشنها حرباً عدوانية ذهب ضحيتها مئات الجنود الإسرائيليين . إن الشاعر روزنتال ، يدين في هذه

٣٢ــ عن جريدة عل همشمار ٣١ / ٣ / ١٩٨٣ . ترجمة علي بدران .

القصيدة الدولة الصهيونية برموزها العسكرية والسياسية المتطرفة ، ويتهم بصراحة مكشوفة المسؤولين الرئيسيين الذين خططوا لإشعال نار هذه الحرب . وحتى وإن بقي هذا الموقف المناوىء في حدود الاحتجاج ، لأنّ مثل ذلك يكفي ليطلعنا ولو بشكل جزئيٍّ على موقف اليهود واليهود الصهاينة تجاه ما يجري من خطورة وجنون شبه فائق في إسرائيل . وإذا كان الشعر ليس فاعلاً في التغيير الاجتماعي ، مثلما هو الشأن في السياسة ، لأنه وبالرّغم من ذلك فإن مادة الشعر أو الفن عموماً ، يمكن اعتبارها الخلفية اللامرئية التي تدفع نحو التغيير بالوسائط الثويرية . وبالتالي تكون الفعل النصير لفعل السياسة المباشر . إن الشعر الاسرائيلي (اتجاه الرّفض) من نوع (أعيد وهذه الأوسمة) ، لهو شهادة توثيقية بدأت تدل على بشائر الأزمة الصهيونية وعمقها الخطير الذي ربما يدفع بها إلى الانهيار الكامل . ومن ناحية أخرى فإن مثل هذا الشعر المصادم للانحرافات الاسرائيلية المجنونة ، يمثل المرآة العاكسة لتقهقر الذات الصهيونية ، والقلق ، وتضخم الثورات النفسية المنحرفة التي زادتها تشنجاً حدة التورط العسكري الاسرائيلي

المغامر في لبنان . وفي هذا المقام يمكن الاستشهاد بمقالة (الغارديان) وعلى لسان الصحفي ميكل آدمز) الذي كتب يقول : (الاسرائيليون ــ على جميع مستوياتهم ــ أصيبوا بصدمة عنيفة نتيجة لما سمعوه ولمسوه عن معاناة جيشهم في لبنان واضطراره في النهاية إلى الانسحاب دون أن يحقق أهدافه المعلنة ؟ والشعور السائد بين الاسرائيليين الآن هو شعور « بالقلق والرهبة » من المخاطر التي يواجهها جنودهم)[٣٣] أو كما عبر انطوني لويس المعلق الصحفي في جريدة (نيورك تايمز) عن هزيمة إسرائيل في لبنان قائلاً : إنها واحدة من أسوأ الكوارث التي منيت بها إسرائيل منذ نشوئها وبأنها أيضاً كارثة لحقت بإسرائيل نتيجة لأخطاء إسرائيل نفسها . ومن جهة ثانية فقد اعتبرها المفكرون الاسرائيليون حرباً مجنونة هذه التي قامت بها دولة إسرائيل في لبنان ، وفي هذا السياق تتطابق مجمل هذه الآراء الفائتة مع قصيدة (أعيدوا هذه الأوسمة) لتشكل أخيراً واجهة الرفض العريضة لهذه الحرب المجنونة التي قبرت العديد من الجنود الصهاينة في أرض الكرامة العربية

٣٣ــ راجع صحيفة تشرين السورية ، بتاريخ ٣٠ / ٤ / ١٩٨٥ .

المدافعة عن شرفها وقدرها الحضاري العربي الذي ألهمها الرجال الأبطال ، وينابيع العطاء . وعلى لسان الشعراء الاسرائيليين أنفسهم الممثلين بتيار الرفض ، تكتب أشعار الجنائز وهي تحصي موتاهم المقبورين هنا وهناك :

« دفنا أمواتاً كثيرين

وما نزال ندفن

في كل يوم

في كل أسبوع

وفي كل شهر »[٣٤] .

لقد أصبحت فكرة الحرب الهاجس الأكبر التي زرعتها إسرائيل في نفس المواطن اليهودي ، وباتت تشكل معادلاً نفسياً اصطبغت به مقومات الذات اليهودية . ومن هنا فإنها أضحت مصدر اللااستقرار الفردي والاجتماعي في كيان العدو المحتل الذي هدد أمنهم العام وذهب بمعنويات اليهود واليهود الصهاينة إلى درجة اليأس الخانق :

٣٤ــ عن نفس المرجع السابق : عل همشمار ٩ / ٣ / ١٩٨٥ . ترجمة علي بدران .

« وسام العار هذا
يزيد من إحساس العار لدى
المحارب
في هذه البلاد
التي تأكل أبناءها
في هذه البلاد (بيت المجانين) » .

إن العالم بأجمعه اليوم يقف شهود عيان على فظائع الحركة الصهيونية في لبنان خلال الحرب الأخيرة هذه الفظائع التي ستؤدي بها حتماً إلى نقطة انفلات الكارثة الكبرى . لذلك كان اتجاه الرفض والاحتجاج الاسرائيلي الإشارة المبكرة التي جاءت تنبيء بالمصير السيىء الذي يترقب إسرائيل إذا لم ترجع إلى جادة الصواب . لكن وبلغة أدق يجب أن لا ننساق كثيراً في تعاطفنا مع هذا الاتجاه الرافض لسياسة الحروب الاسرائيلية ، لأنه في الواقع لا يملك واقع القوة داخل إسرائيل ؛ هذا الاتجاه الذي لا يملك من سياسة التغيير سوى لغتها الفوقية . وبالتالي فإن أنصار الرفض والاحتجاج من الكتاب والشعراء لم يحددوا مرة أخيرة مواقفهم العدائية الرافضة كلياً

للوجود الصهيوني ولهذا فإن مواقعهم لم تتعدَ مواقع ومواقف اليهودي واليهودي الصهيوني الغاضب على الصهيونية . إلا أنه ومع كل الحذر الشديد للتعاطف الروحي مع هذه الظاهرة الأدبية الإيجابية في الكيان الصهيوني فإننا نرى فيها شكلاً مضاداً واحتجاجياً موجّهاً من اليهود أنفسهم ضد سياسة المغامرة العدوانية التي تنتهجها إسرائيل منذ قيامها حتى الآن . أنه إن هؤلاء اليهود المناوئين لفكرة الحروب الاسرائيلية والذين منهم من فقدوا أولادهم وذويهم ، أصبحت الدولة الصهيونية وتجار الحرب فيها يشكلون مصدراً للرعب والخوف الدائم على مستقبل يهودي لم يعد مضموناً تحت إشراف دولة إسرائيل . وعلى هذا النحو جاءت قصائد الرفض والاحتجاج مشحونة برفض الأوامر والتنديد بمظاهر التقهقر والتراجع الصهيوني تجاه التزاماته الجماهيرية اليهودية حول تأمين الأمن ، والشعور بجدارة المستقبل ووضوحه ، هذه هي القوانين التي سقطت من حساب الحركة الصهيونية ولم يبقَ منها سوى سياسة التوسع والعدوان على حساب اليهود أنفسهم :

« نرفض الاوامر

لن نحارب في لبنان

لن نموت من أجل لا شيء

أصدقاء لنا كثيرون

ذهبوا إلى لبنان

وعادوا داخل توابيت

لن نعود داخل توابيت

اذهب أنت يا سيد شارون

فأوامرك سنرفضها

ومخططاتك سنفشلها

تعالوا لنجلس في سجن رقم ٦ »[٣٥] .

لاشك في أن هذا الموقف الشعري في هذه القصيدة يتعلق بقيمة موضوعية إيجابية من خلال رفض الشاعر لمخططات الاحتلال الصهيوني للأراضي العربية ، وهو أخيراً يحرض بني قومه على أن دخول السجن أشرف من الذهاب إلى الحرب التي أعلنها شارون ، لكن وبالرغم من هذا الموقف الرافض لسياسة العدوان الاسرائيلية ، فإن هذا الشعور الفردي

٣٥ــ عن مجلة هعولام هازيه ٩ / ٣ / ١٩٨٣ . ترجمة علي بدران .

الديموقراطي والانساني لا يمنعنا كما قلنا سابقاً من ممارسة الحذر والانتباه وذلك لما تحتويه العناصر المتشابكة والمعقدة في الأدب الاسرائيلي والصهيوني المعاصر . وبالتالي فإن مثل هذه النصوص الشعرية الاسرائيلية لا تخيف إسرائيل في شيء وذلك لأن المحتجين هم يهود وصهاينة . وبالتالي فإن لعبة الديموقراطية الشعبية وحرية التعبير تمثل في الحقيقة أحد الأسلحة (البيضاء) الحادة في المنظورات الصهيونية السياسية العريضة .

وليكن للمعلوم بأن الظاهر والباطن في السياسة الاسرائيلية يعتبر مسألة موحدة في الجوهر الاستيطاني الذي قامت عليه إسرائيل وبالتالي فما اليسار الصهيوني والاشتراكية الدولية ، وأحزاب التقدم الاجتماعية ، سوى صورة متقدمة لتوزيع الأدوار تحت راية الوجود الصهيوني في المنطقة العربية .

إن دور اتجاه الرفض والاحتجاج ضد سياسة إسرائيل الاستعمارية ، مايزال دوراً قيد الولادة ، وإن تطوره لا محالة مدروس من قبل المؤسسات السياسية الاستراتيجية العليا في

الكيان الصهيوني ، ومع كل تقديرنا للأصوات اليهودية المنادية بسلام عادل وديموقراطي في المنطقة، فإننا نؤكد لهم أن أهداف الحركة الصهيونية أقوى من أية دعوة أو احتجاج من هذا القبيل . وإذا كنتم أيها الكتاب اليهود التقدميون جادون لأجل القضاء معنا على جذور الصهيونية فإن ذلك يجب أن يتعدى حدود الخطابات الأدبية الفوقية الرافضة . ولذلك فإن هذا الشعر الاسرائيلي ذي النزعة الإيجابية ، يمثل اليوم صرخة ضعيفة في واد الصهيونية السحيق وإن صداها ولا شك في ذلك يصبّ أو بالأحرى فهي تلتقطه شبكات التنصت الدقيق في المعاهد العليا للدراسات الإيديولوجية والسياسية الاستراتيجية المستقبلية في الكيان الصهيوني إذن ما هو المستقبل الذي ينتظر إسرائيل ؟

إن الحرب الاسرائيلية / العربية الأخيرة دقت ناقوس الخطر على مستقبل إسرائيل والصهيونية السياسية ، ولعل مثل هذا الرأي للمفكر اليهودي مينكوفسكي عند تعليقه على هذه الحرب التي قادت الأزمة تلو الأزمة في الكيان الصهيوني ، تشير إلى نوع من الاستشراق الذهني الدال بصراحة على

المستقبل المجهول الذي ينتظر إسرائيل عند منعطفات الهاوية .
حيث قال في مقابلة صحفية مع إحدى المجلات الفرنسية ما معناه (لأول مرة نجد أنفسنا أمام وضع بهذه الخطورة والحساسية والإرباك ، إن اليهود خجلون من اليهود ، إنهم خجلون من موت العديد من المواطنين والمدنيين . إنها صورة تبعث على الحزن والألم ، وها هي الصهيونية ترمي بنفسها في خانة التخريب والدمار ، وتستدعي اليهود من كل صوب وتزج بهم في معركة ضارية ضروس ، وكأن الحرب بالنسبة لليهود الذين تشبعوا بالمثالية الصهيونية ، أصبحت تعني عندهم الطريقة الوحيدة للحوار مع الخصم)[٣٦] .

بهذه الكلمات الموجزة نستطيع أن نفهم آلية الخوف من الحرب التي أثرت في العقل اليهودي ، وبدأت تقوده نحو السحق الذاتي . وعلى هذا السبيل فإن ما يجري اليوم في الكيان الصهيوني من تناقضات اجتماعية وسياسية وفكرية وثقافية تحت وطأة النزعة الحربية الصهيونية المزمنة ، بات لا

٣٦ــ عن مجلة الآداب الحديثة الفرنسية سنة ١٩٨٢ ، حزيران العدد ٢٨٤١ . السنة الستون ، باريس فرنسا . ترجمة صاحب المقالة .

يفتح في الحقيقة على آفاق واقعية لمستقبل إسرائيل ، مما عرض أدبياته المعاصرة إلى التفكيك وسقوط بعضها في براثن الزيف واللاأدب . إن مستقبل إسرائيل بآدابها وفكرها ومجتمعها هو رهين عدة عوامل دولية وعالمية ، كما أن أبعاده الأساسية تدركها إسرائيل جيداً . وهي تمتلك جزءاً من المفاتيح الهامة لإيضاح هذا المستقبل . أما الحديث عن مستقبل الصهيونية فإن هذا المستقبل محاط بالجحيم ، وهو لن يعرف (زمنية) إنسانية مهما امتد به الزمن . وما صيحة الشاعر الإسرائيلي روزنتال سوى النذير الحقيقي الذي سيأتي على الصهيونية السياسية ويدخل بها إلى الجحيم المنتظر في فجر يوم بارد :

« فوق زنازين الظلام
في بيوت الحاكمية العسكرية
الأوسمة المعادة كلها يجب أن
تباع .
في البقالات في المكتبات
لتمويل مظاهرات الرفض
للسياسة المجنونة

الرفض للحروب للعدوان
للأكاذيب الكبيرة » .

(قصيدة أعيدوا هذه الأوسمة نفسها)

وأخيراً فالمستقبل وحده يحدثنا عن تطور الأحداث وتغيرها في منطقتنا العربية ، ويكشف لنا عن ما هو سري وخفي في السياسة الاستراتيجية للكيان الصهيوني .

إن الصهيونية السياسية التي قامت على الاغتصاب والحرب لن تزول إلا بحرب مضادة لها، حرب يقوم بها العقل أولاً ومن ثم يصار إلى تنفيذها من خلال :

١ ــ تكريس الديموقراطية الاجتماعية وتمكين المواطن العربي من صنع الذاتية الفاعلة .

٢ ــ تعبئة القوى العربية الشاملة ، وخلق مستويات عالية من التضامن والتوحد العربي في المصائر العليا الوطنية والقومية .

وتدعيماً لهذين العنصرين ، يمكن أن نجزم بأن معركتنا

الأولى التي يجب خوضها مع العدو الصهيوني ، تكمن في صراعنا العقلاني والعلمي معه .

إن طريقنا إلى حرية الفرد العربي وحرية الأمة شاق جداً وطويل . لكن حلمنا باجتيازه وبلوغ مرتبة هذه الحرية سيدفعنا دائماً إلى العمل والتفكير مهما أرّقتْنا الظروف الخاصة والعامة ، وأتعبنا الزمن .

إن وجود الكيان الصهيوني محكوم بألغام عديدة ، ونحن من واجبنا اكتشاف أمكنة هذه الألغام ثم أبطال مفعولها ، وهذا الأمر يتطلب منا في الواقع تطبيق الأقوال والأفعال وامتلاك جدارة الفعل والعقل معاً .

اللّايهودي واليهودي
في الخطاب الصهيوني المعاصر

« ملاحظة عامة : لم يكن قصدنا من وراء هذه المقالة إحياء اللاسامية والعنصرية العرقية ، وإنما أردنا وبشكل متواضع تتبع مظاهر العرقية والتمايز كما أكدت عليها نسخ التوراة المتداولة عالمياً وكما هي بين أيدينا ، ثم استغلال الصهيونية لمثل هذه الظواهر وتغذيتها كأحد العوامل الهامة في نظريتها الاستعمارية العرقية » .

إن تفرد اليهودي العرقي ثم نقاوة شخصيته ، تعتبر من الصفات الأساسية في تكوين الشخصية اليهودية عبر تاريخها . وإن هذا التمايز والفرادة العرقية التي يشعر بها ، نجدها قد لازمت اليهودي منذ فجر هذا التاريخ . كما أن وجود اليهودي كان دائماً محفوفاً بالألغاز والتمرد والعصيان ، فأينما رحلوا أو حلّوا تجدهم وقد تقوقعوا داخل تجمعاتهم الضيقة ، وذلك

بسبب من شرائعهم الدينية التي فرضت عليهم العزلة والانغلاق نتيجة لبعض مفاهيمهم الخاطئة حول الرسالة العبرانية التي نزلت عليهم من السماء . (وإذا كان العبرانيون قد تميزوا بشيء ما عن الأمم الأخرى فإنهم قد تميزوا بازدهار أحوالهم فيما يتعلق بالأمن في الحياة ، وبما حصلوا عليه من سعادة في التغلب على المخاطر الكبرى[٣٧] وقد تم لهم كل هذا بعون الله الخارجي فحسب . وفيما عدا ذلك كانوا على قدم المساواة مع باقي الأمم ..)[٣٨] ولذلك فإن فكرة شعب الله المختار تعد من قبيل الفهم الخاطىء الذي أخذه اليهود عن

٣٧ـ يسخر سبينوزا ويقول : « من لايعرف حروب العهد القديم وكوارثه ؟ وبالتالي ودون أن يقول ، يجعلنا سبينوزا نفهم أنه لا يحق لأي شعب أن يدعي أنه شعب الله المختار ، وكيف يكون اليهود شعب الله المختار وتاريخهم ، هو الأسر في مصر ، وخضوعهم المتواصل للفلسطينيين ، سنوات المجاعة ، تاريخ سادوم وعامورة ...إلخ . ربما لا يكون العهد القديم تاريخ الشعب المختار بل تاريخ العصيان المستمر خاصة وأن كثيراً من الأنبياء يبدؤون نبوءاتهم بالويل والثبور لبني إسرائيل » .

٣٨ـ راجع كتاب : رسالة في اللاهوت والسياسة تأليف باروك سبينوزا ، ترجمة د . حسن حنفي .

الكتاب المقدس كما جاء في نسخ الأسفار التي نقلت إلينا في الزمن المعاصر .

وعن المصادر الأساسية في تكوين الشخصية اليهودية ، فإن التوراة والتلمود تشكلان المصدر الانطلوجي والفكري الأساسي الذي ساهم تكوينياً في بناء هذه الشخصية . وكما قلنا قبل قليل فإن التوراة الحالية جاءت تقول إن اليهود هم شعب الله المختار الذي فضله على غيره من الشعوب الأخرى ، ثم إن الشريعة الإلهية نزلت وقفاً عليهم دون غيرهم من البشر (وقال الرب لموسى اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها)[٣٩] . ونتيجة لهذه الأفضلية الإلهية ، ولدت فكرة (الغيرية) كبعد نفسي متجذر في عقلية اليهودي. وفي أعماق هذه العقلية الدينية المتمايزة عن غيرها فإن (الآخر) غير اليهودي لا يتمحور كهوية إنسانية مماثلة (ANALOGUE) سوى انطلاق من موقع اليهودية ، وبالتالي فإن هذا (الآخر) المعني لا يتموضع

٣٩ــ راجع كتاب : رسالة في اللاهوت والسياسة نفس المصدر السابق ص١٧٨ .

كهوية تقابلية مع اليهودي في الموقع نفسه الذي هو فيه . ولعل التشوه الذي لحق بالعقل اليهودي الديني ، سببه الرئيسي كما أوضحنا ذلك متعلق بفكرة (الأفضلية) الإلهية على غيرهم ، وفي هذا السياق نؤكد مرة أخرى على أن (اختيار الله لليهود كان يتعلق فقط بالنعم الدنيوية الجسدية وبالحرية ، أي بوجود الدولة ... وفيما عدا ذلك مما يكون القيمة الحقيقية للإنسان لم يتميز اليهود على غيرهم في شيء)[٤٠] .

لقد تشكل أول خطاب لليهودية بظهور نصوص التوراة والتلمود ، وبعض الأساطير الدينية الأخرى.هذا الخطاب نجد فيه فصل اليهودي عن الآخر من الاشكالات الأساسية التي خلقت بذور العنصرية في الفكر اليهودي والصهيوني اللاحق . ومن خلال فكرة الاختيار والتمايز اليهودية ، وضعت مسألة الغوييم لتدل على أن العالم في نظر اليهودي ينقسم إلى قسمين : اليهود والأغيار . وللحقيقة التاريخية لم يكن إحياء الغيتو اليهودي في الأزمان اللاحقة من ابتكار الأمراء المسيحيين في القرون

---

٤٠ ــ راجع الكتاب المقدس سفر خروج ٣٢ ــ ٣٣ الاصحاح الثالث والثلاثون ص١٤٢ .

الوسطى ، وإنما جاءت في أكثر الأحيان استجابة لطلب زعماء الطائفة اليهودية . وفي هذه الأحياء المحاطة بسور عال ، جرى انفصال اليهود جسمياً عن الغير ، ولقد وجد اليهودي في الغيتو الذي فرضه على نفسه أنه يعيش دائماً في إطار « نحن والغير » .

إن هذا الانفصال الجسماني يمثل في الواقع حجر الزاوية المركزية في تغريب اليهودي وعزله روحياً عن البشر الآخرين . ومن جهة أخرى فإن التوراة تحث اليهود على امتلاك الشعور الفوقي وصيانة أنفسهم ضد الاندماج مع الأغيار ، لأن الرب هو الذي أمرهم بذلك وهم ينتظرون العودة إلى الأرض التي وعدهم بها حتى يطبقوا الشرائع والقوانين التي خصهم بها ، وأنه ثمة عودة كبرى إلى الأرض المرتقبة تكون ملاذهم الأخير بعد طول عذاب واغتراب ، وهي تمثل (العودة) فرصتهم الأبدية لأجل قيام حكمهم المطلق وإقامة الدولة اليهودية الكبرى من الفرات إلى النيل . وهكذا فإن هذه الأفضلية المزعومة لا يمكن أن تخرج عن هذين العاملين :

١ ــ إن اختيار الله لهم كان يتعلق فقط بالنعم الدنيوية

الجسدية وبالحرية حسب رأي الفيلسوف سبينوزا .

٢ ــ يرجع هذا الاختيار أيضاً كما صاغه كتاب الأسفار (أي فكرة الأختيار فقط) إلى طبيعة الأعمال التي كان يمارسها اليهود (التجارة ، والربا ، والحرف اليدوية وغيرها من الأعمال الأخرى) .

وبالتالي ونتيجة لهذين العنصرين الواقعيين ، خلقت الهوة بين اليهودي والغير . وبهذا الصدد أستسمح من القارىء إدراج هذه الفكرة لأبين سبباً ربما يكون فاتحة متواضعة على فهم فكرة التمايز المذكورة[٤١] .

لقد كان عمل الصيرفة والتجارة والربا خاصة عبر تاريخ اليهود ، يمثل الحلقة الرئيسية في علاقاتهم مع الأمم الأخرى ، الروحية منها والاجتماعية والاقتصادية . وكما نعرف أن العلاقة بين الأنا والغير في اللحظة التبادلية على مستوى القيمة السلعية والمالية الحرة ، تحكمها حالة انفصال واغتراب ، يصبح فيها الأنا والغير متباعدين ، ولا تحكمهما عضوياً سوى

---

٤١ ــ هذه العبارة من المؤلف .

اللحظة / المصلحة التبادلية.. وبمعنى آخر فإن الأنا لا يتحدد كآخر متحد به وساكن فيه ، إلا حينما يحضر هذا الآخر في الآن المادي أي أن الآخر والأنا ينفي بعضهما الآخر حسياً. وفي هذه الحالة فإنهما يفقدان النقطة الحسية العليا لوحدتهما الانطولوجية والاجتماعية . إن قوة الصيرفة والسلعة والتجارة المادية ، حين تفلت من زمام العلاقات الحسية العليا وواقعيتها التبادلية المتكافئة ، فإنها تحول علاقة الأنا بالغير إلى شكل للطبيعة العلائقية المرتبكة والمتوجسة. وبالتالي يصبح الأول متربصاً بالثاني لكي يحوله إلى حالة نكرة مرتبطة دائماً بلحظة التبادل الانتاجي المادي ، والعكس بالنسبة للآخر صحيح . وإن هذه الظاهرة نجدها قد أثرت في معظم المراحل التي سادت فيها نظم التجارة خاصة في مرحلة الرأسمالية المتأخرة . وعلى هذا النحو فإن عقلية اليهودي منذ فجر تاريخه لم تخرج عن هذه الدائرة إلا في بعض الحالات الفردية المنسلخة يهودياً .

لا شك في ذلك أن بدايات التفكير اليهودي كانت قد ظهرت منذ مرحلتهم القبلية التي حملت معها ذلك النوع البدائي من العنصرية الذي نطلق عليه كلمة (العصبية

القبلية) ، حيث من المفترض أو المتوقع في سير العمليات الحضارية أن تتلاشى هذه العصبية وتمحى بدخول أصحابها الحياة المركبة للمجتمع الحضري . بيد أن المصير النحس الذي رافق نشوء دولة بني إسرائيل ودمارها ووقوع أصحابها في الأسر أدى إلى تشويه في النمو الطبيعي لذهنية اليهود ، كان من آثاره انغلاقها على نفسها وتفاقم شعورها بالخوف من الغير . وفي هذا المجال نجد الشواهد كثيرة إذ (يكفينا أن نشير منها في هذا العصر إلى قضية اللاعب الأمريكي جيم بترايت بطل كرة السلة الذي تعاقدت معه فرقة مكابي تل أبيب ولقد اتضح أن اتحاد كرة السلة الصهيوني لا يسمح لغير اليهود بالمشاركة في فرق الاتحاد مما اضطر اللاعب الأمريكي إلى اعتناق اليهودية)[٤٢] . وهناك حوادث أخرى شبيهة بهذه الحادثة شملت بعض اليهود (الشرقيين) وغيرهم . ولعل بعض الاجراءات الخاصة فيما يتعلق بصفقة يهود الفلاشا النازحين الجدد وما ترتب عليه من تهويد وصهينة أكبر دليل على روح التفرقة التي يمارسها اليهود ، لأن عزل الغير يعتبر بالنسبة

---

٤٢ ــ راجع كتاب الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية ، خالد القشطيني .

لليهودي ، مسألة ضرورية للحفاظ على درجة التمايز الروحي التي يشعر بها . إذن ؟ وفي سياق هذه الأمثلة الغادية ، فإن غير اليهودي أو (الهو) بالمعنى التشخيصي له ، لا يمكن أن يندرج منطقياً في العقلية اليهودية وإن هذا (الهو) بالنسبة (للأنا) يمثل في الواقع القطعية الحسية معه. إن اليهودي وانطلاقاً من ثنائية اللحظة المزدوجة شعورياً بين الوجود للآخر واللاوجود معه . (وهي تمثل لحظة الصيرفة أو لحظة التبادل السلعي/المالي الحرة النافية لأحد الطرفين المتبادلين أو الداخلين في عالم اللحظة المالية) لايدرك وجود الغير كوجود مماثل لوجوده ، بل إنه يعينه كوجود (غيره) يترصده باستمرار ويعمل على تغييبه (هذا شعور اليهودي) ونفيه ليكون هو بذاته (أي الآخر) هذا الوجود المعين . ولهذا فإن هذا الأخير يبدو دائماً في نظره كحالة نقيضة تجابهه في مواقع النفي والازدواج . ومن جهة أخرى فإن هذه العقدة النفي / الازدواج نجدها في الواقع قد شكلت النواة الجوهرية في بنائية الخطاب الصهيوني . وحول مسألة استبعاد الآخر وعلاقته بالأنا اليهودي في هذا الخطاب يمكن العثور

عليها في نصوص يهودية ويهودية صهيونية متعددة . فلو نأخذ مثلاً رواية (الحب المتأخر) لعاموز عوز الروائي الصهيوني المعروف ، سنجد حضور المسألة المذكورة متجسدة كالآتي (إن الصراع يدور في ذات الأستاذ بين رغبته في الاستمتاع بالحياة وبين الهوس الذي يسيطر عليه . أما الآخرون الذين يحاول إقناعهم بوجود مخطط روسي لإبادة اليهود ، فنحن نسمع عنهم دون أن نراهم أو نشاهدهم وهم يصارعون وهم الأستاذ)[٤٣] . وبهذه العبارة التي تمثل قاسماً مشتركاً في النصوص الصهيونية المعاصرة ، نكتشف بصورة منطقية لا تحيد عن الذهن نموذجاً تطبيقياً لها . وهي أن حضور شخصية العربي وغيابها الدائم في الوقت ذاته لا تأخذ شكلاً إنسانياً ، رغم أن هذه الشخصية تشكل أحد المحاور الرئيسية للصراع الدائر . وبمعنى آخر فإن (الغير) يتشكل عقلياً في ذهن اليهودي كهوية شخصية حاضرة / غائبة (كما قلنا سابقاً استناداً إلى لحظة الصيرفة المالية الحرة في علاقتها بالطرفين المتبادلين) . وهي تشكل نقيضة الحسي / الروحي في كل

---

٤٣ ــ راجع الأقلام العراقية عدد خاص بالأدب الصهيوني عام ١٩٧٩ . ص١١٩ .

الحالات . إن قدر اليهودي هو أن يظل يهودياً لا يشاركه أحد في يهوديته ، أي أن يظل (الغـويم) خارج تفـكيره ومعتقداته ، وبهذا الشكل نحاول أن نبين ذلك :

(أ)

الآخر

اليهودي

اليهودي كما يبدو منغلقاً على الاخر حسياً

الآخر

(ب)

الآخر الآخر الآخر

الآخر كما يبدو منفتحاً على الآخر في حدود علاقة الانفتاح والآخر هنا هو غير اليهودي .

وبهذه الصفة التي ذكرناها يمكننا القول بأن اليهودي يحاول كما هو عليه أن يغيب الآخر ولا يتماثل معه واقعياً . ولذلك فإنه عندما يقوم بحركة النفي ضده ، فهو لا يقوم في الواقع سوى بنفي ذاته وعزلها تلقائياً . وبصورة أخرى فهو ينفي وجوده التماثلي ليحل في الوجود الفراغ . ولعله وبسبب مثل هذه الظواهر المجسدة في الفكـر الديني اليهودي والصهيوني ،

نلاحظ وجود صراع واضح بين فكر الله في التوراة وفكر اليهودي والصهيوني في الواقع . وهذا ما نلمسه بوضوح لا يقبل الشك في إيديولوجية الحركة الصهيونية التي تسلك ظاهرياً فكراً وعقيدة تبدو في شكلها بعيدة عن الدين اليهودي . ولكنها مستمدة منه ومعمقة للتناقض الذي يحتوي عليه ، هذا الدين الذي (ربما حرفت قيمة الأولى) نجده يكرس العنصرية والغيرية . وقد خلق من التناقضات صورة مشوهة للعقل اليهودي عممت فيما بعد النماذج القاصرة للشخصية اليهودية . وعلى سبيل المثال فإننا نجد ما يبرز ذلك في نصوص التوراة (كقصة أستير مثلاً) وفي الآداب الصهيونية الحديثة ، حيث تلغى الجدوى الشمولي للآخر في علاقته باليهودي ، وتضعه في موضع الاستبعاد . وأخيراً فإن هذه العقلية تجعل من اليهودي الأنا المطلقة في الواقع . وفي كتابات الصهيونية أيضاً يسلب الفكر الصهيوني الغير فيجرده من حقه ، ويحاول أن يمسخ تاريخه (إن الغير يمثل هنا العربي) وشخصيته التاريخية والحضارية ليصنع هو على أنقاضها فكره ووجوده الخاص . وعلى هذا النحو يتشكل الخطاب الصهيوني والديني

التوراتي ، كخطاب يسعى لنفي الآخر واستبداله بآخر يكون من عين وجوده وفكره . وحتى إذا كان ثمة اعتراف بهوية الغير من دونه فإن ذلك تتطلبه الظروف العامة لأجل استمراره (أي اليهودي) من خلال الصراع الضروري ، وهو صراع خاطىء يكمن في النفي والملكية .

ولكن اليهودي والصهيوني اليهودي يقعان حقيقة في الخط الواهم ، حين يتصوران أنه بمجرد إلغاء (الغير) وتجريده من حق التماثل الحسي / الروحي معهما خلال لحظة التبادل الصيرفي والاستبعاد الفكري ، يتم تأكيد وجودهما المطلق عليه . إلا أن هذا الإلغاء المزعوم يضعهما من جهة أخرى في وجود ناقص مليء بفقد الثقة والخوف والشكوك . وهذا ما كانت تفعله باليهودي لحظة التعامل بالربا واقتناص الأشياء من الآخر بلا هوادة . وهو أيضاً الشعور نفسه الذي يقع على الأفراد التجاريين الجشعين أصحاب ملكيات الربا والاستغلال المادي الذي عرفته العصور التجارية في القرون الوسطى وفي الطور الثاني من العصر الرأسمالي / الامبريالي . وفي سياق هذا المعنى الذي أشرنا إليه قبل قليل ، فإن اليهودي الصهيوني حين

يعمد إلى نفي (الغير) فإنه ينفي ذاته نفياً مزدوجاً : فهو ينفي (الغير معه) خلال لحظة الفعل ، ثم ينفي ذاته حين تتحول إلى حال النفي . ونتيجة لفعل النفي هذا الذي يقوم بتنفيذه العقل الصهيوني ، نصل إلى اكتشاف عدة ظواهر شاذة أصبحت اليوم تشكل طابعاً عقلياً في الخطاب الصهيوني . كظاهرة التقمص والاسقاط أي أن الفرد اليهودي والصهيوني يبرز في خطابه (إحساسه العدواني من خلال تصور أن الآخرين هم الذين يحملون هذا الاحساس العدواني ضده ثم يعود ويستثير عدوانيته الخاصة من خلال تقمصه لعدوانية الآخرين التي خلقها وهمه . وهذه بطبيعة الحال حلقة مفرغة تؤدي حتماً إلى زيادة الروح العدوانية في الشخصية الصهيونية وتشديد خوفها)[٤٤] . وباختصار فإن هذه العدوانية التي تتخذ أحياناً شكلاً خفياً ، تمثل في حقيقتها حلماً لقوة محبطة تتحول بهذا السبب إلى عامل آخر من عوامل التحلل العقلي وهي كما تبدو في أبيات هذا الخطاب الشعري :

---

٤٤ ـ راجع مجلة الأقلام العراقية عدد خاص بالأدب الصهيوني نفس المصدر السابق .

« كلاب تقتل كلاباً
فلماذا نتدخل نحن ؟
ولماذا لا نكون سعداء
العرب سيظلون هم العرب
وما حدث في بيروت كان سيحدث لنا حتماً
لو أن العرب كانوا
المنتصرين » .

أنظروا معنا فكرة الاستبدال هذه التي تضع علاقة الأنا بالآخر في موقع النفي لكليهما . وبذلك فإن صورة التضاد بين شخصية اليهودي الصهيوني وبين شخصية العربي تمثل صورة لتضاد مبني على نفي (الغير) كما جسدها العقل الصهيوني في هذه الأبيات . وهي قد لخصت معناها بهذه الطريقة المتحللة عقلياً :

« العرب سيظلون هم العرب » .

لو كان العرب هم المنتصرون لكنا نحن المهزومين . وهذا ما معناه ، إذ لو كان الآخر في مكاني ، لكنت أنا غيره مهزوماً بفعل وجوده في ذات المكان. وفي سياق هذا القول فإن

ظاهرة الاستبعاد والنفي في الخطاب اليهودي الصهيوني نستطيع أن نستدل عليها بالتركيز على العذاب اليهودي الذي كانت له آثار بارزة في تركيب العقلية اليهودية عموماً .

إن الابتزاز الصهيوني بالعذاب اليهودي ، قد حقق بعض النجاح ، لكن آثاره المدمرة أصابت إنسانية اليهودي في الصميم . وبالتالي عندما فقد حساسيته بالألم ، فقد بذلك حسه بالانسان الذي يمثل شرط وجوده .

إن نفي (الآخر العربي) في الخطاب الصهيوني واليهودي الاستعماري ، لهو نفي متعمد وعدواني في منظورات الصهيونية السياسية خاصة . ذلك لأن لا نفيه كما يراه اليهودي الصهيوني ، يعني بصورة أخرى نفياً لوجوده الخاص الذي تهدده العلاقات التماثلية والتقابلية حين يكون العربي طرفاً في وجودها . أي عندما يكون موجوداً في المكان الذي يشغله اليهودي واليهودي الصهيوني عقلياً وواقعياً . ولذلك فإن وجود هذا (الآخر العربي) يمثل وجوداً خطيراً في المكان الذي يوجد فيه الصهيوني غاصباً ومحتلاً . وهذه الصورة لا تحيد كثيراً عن هذه المقولات التالية :

١ ـــ أرض فلسطين ليست عربية ، الأرض لليهود ، وإن التوراة قد نصت على ذلك .

٢ ـــ العربي كائن متخلف واليهودي رجل العلم والحضارة ، ولذلك فإن من حق اليهودي شغل هذا المكان الذي لا تسوده الحضارة .

٣ ـــ العربي / نقيض لشخصية اليهودي ثقافياً وتاريخياً وفكرياً وهو لن يكون منه . إنه يترصده باستمرار ، لذلك فإن من واجب اليهودي الدفاع عن نفسه وسحق العربي حتى يزول الخطر .

لقد تكونت روح الخطاب الصهيوني المعاصر على استبدال (الآخر) ونفيه (خاصة المقصود به العربي) ، وهو خاضع باستمرار لنفوذ اليهودي . وليس نفي الفلسطيني من أرضه وتغريبه عنها سوى ممارسة فعلية لسياسة هذا النفي التي يمارسها العقل الصهيوني في كل لحظة كل ما كان هذا الكائن المعني تحت نفوذه .

إن أي واقع هو دائماً كثرة وتعددية فردية واجتماعية ،

فكرية وعقائدية ، تجري حركتها الواقعية داخل هذا الواقع الذي هو أصل وجودها وتطورها . وبالتالي فهو يتقدم عليها (أي الكثرة) في الوجود لذلك فإنه من المستحيل استبصار القيم والأفكار والذوات خارج هذا الواقع الذي ينتجها .

وأخيراً فإن هذا المعنى يقودنا إلى أنه وفي ظل الشروط الطبيعية والانسانية التي تقوم على التكافؤ وعدالة القوانين فإن النفي يستبدل في هذه الحالة بالصراع الضروري الذي تشكل صيرورته القوانين الفردية والاجتماعية . لكن الإيديولوجية الصهيونية ، نجدها قد أخطأت الطريق بنظريتها العدوانية وبأسباب فشلها حين أسست النظرية وتجاوزت الواقع الخاص بها الذي كان من المفترض أن يكون خالقاً أو نافياً لوجودها . ولذلك فإن هذه النظرية أوجدت ذاتها الفوقية خارج واقع منظور ينتج وجودها. ولكي تخلق الإيديولوجية الصهيونية صورة للواقع الذي تريده مطابقاً لنظريتها فإنها استبدلت فكرة الصراع الضروري بحالة النفي والتغريب ، لتؤسس في النهاية واقعاً وهمياً لا وجود له خارج نظريتها.ويمكن

أن نستدل على هذا النفي والتغريب من خلال نظام المشاعر في أبيات هذه القصيدة :

« لماذا جواب الكراهية الأسود
لوجودك يا إسرائيل ؟
أنت غريبة ،
غربة نجمة بعيدة عن جميع النجوم
وأعداؤك بدخان جسدك المحترق
يحفرون لإنسانك الفاني .
قبراً في جبين المساء »[٤٥] .

لماذا جواب الكراهية الأسود على وجود إسرائيل ؟ ولماذا غربة هذه النجمة بين النجوم (تشبيه لوجود إسرائيل) إن هذا المعنى المتضمن في الأبيات يبدو سلوكه واضحاً باتجاه فكرة النفي والجواب يدل على ذلك ، حيث نلمس من خلال تسلسل عناصر هذا الخطاب التضاد الحاصل بين إسرائيل

٤٥ ــ راجع الأقلام العراقية المصدر السابق نفسه ، الأبيات مأخوذة عن قصيدة (لماذا الجواب الأسود) للشاعرة الصهيونية نيللي ساخس ، ترجمة ياسين طه ، ص٩٩ .

وأعداء غير محددين . وفي المحصلة الأخيرة فهو تضاد مبني على النفي والعدوانية . وبالرغم من الأسلوب السنتيمنتالي وانفعالية الرؤية الشعرية ، فإن الشاعرة الصهيونية نيللي ساخس لم تخفِ شعورها بموقفها اللامنسجم مع موقفها الرومانسي الوجداني الذي ضاع بين طيات الدخان المحترق .

إن مشروعية (الآخر العربي) تسقط في معظم (آثار الأدب الصهيوني المعاصر . فهو يعين باستمرار على أنه العدو اللدود الذي يجب القضاء عليه بكل الوسائل المادية والمعنوية . وهكذا فإن إسرائيل اليوم تحارب الجسد والعقل العربي معاً ، بل قل إنها وضعت محاربة هذا العقل بالدرجة الأولى . وهنا تكمن خطورة إسرائيل في تحويل العربي إلى مجرد كائن ضعيف لا حول ولا قوة له، ومن ثم السيطرة عليه . ومن يقرأ كتبهم وخطاباتهم الفكرية والأدبية يلمس بعمق وبإدراك بصيرة ، طبيعة الروح العدائية الموجهة إلى غير اليهود والصهاينة ومثل هذه الأبيات تفصح عن خطابها بكل وضوح العدائية والإسفاف :

« أطردوا كل الخونة من البلاد اليهودية

لا نريد هنا
إلا كل صهيوني حقيقي
يصرخ أمام الملأ :
يهوذا والسامرة لنا » .

وبهذا المستوى تتحرك صورة (الآخر) (وليس شرطاً أن يكون عربياً) في الخطاب الصهيوني ، كما يؤسسه العقل اليهودي الصهيوني ، فهو ينقله من حاضر وجوده إلى مستوى نفيه وتغريبه . وهذا ما ينطبق بالفعل (من الكلمات التي شاع استعمالها في وصف الصهيونية وزعمائها ، حول الأحلام ، والمغامرة والجنون التي يتسم به عقلها . أو كما قال كويسلر عن الوجود الصهيوني بأنه شيء لا يمكن تفسيره على المستوى العقلاني)[٤٦] .

إذن ؟ ما الذي يمكن أن يقدمه للانسانية ، مجتمع قام على تمجيد اللاعقلانية ، واستغلال العقلانية إلى حدود اللاإنسانية ؟ وأي مكان يمكن أن يحتله الآخر في دائرة هذا

٤٦ — الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية نفس المصدر السابق ص ٧٣ — ٧٤ .

المجتمع . لا شيء بالطبع في الوقت الراهن يمنحه مجتمع الصهيونية للعالم سوى مثل هذه المشاعر :

« اليوم في حملة سلامة الجليل
سسفك الدماء الكثيرة
ونقتل الأطفال والنساء
والشيوخ » .

أو كما قالت نصوص التلمود في العالم القديم مخاطبة اليهود : (أنتم لا تستطيعون السيطرة على جميع الناس ولذلك أججوا بينهم نار الفتنة فيضعفون بيد البعض ، وتقتلون قويهم بيد ضعيفهم وبذلك تسيطرون على مجموعهم)[٤٧] .

لقد حفظت الصهيونية هذا الدرس جيداً ، ثم جاءت وطبقته في إطار سياسات اقتصادية استعمارية ماتزال سائدة حتى هذه اللحظة الأخيرة . وقبل أن ننهي هذا الموضوع فإننا لم نرد من خلال هذه الدراسة التجني على القيم الصحيحة

---

٤٧ ــ راجع مجلة الموقف اللبنانية ، عن مقالة المسيحيون والصهيونية : للشيخ الدكتور محمد علي الزعبي (آسف من السادة القراء عدم ذكري لرقم هذا العدد الذي ليس في حوزتي الآن).

والانسانية للكتاب المقدس ، وإنما أردنا في الحقيقة أن نبين عيوب اليهودية الخاطئة واليهودية الصهيونية ، علماً بأن هذا الكلام لا يشمل إخواننا اليهود الطيبين في الإيمان بالقيم الإنسانية ، والساعين إلى حب السلام مع إخوانهم الذين يمدون لهم أيديهم خارج النظريات الاستعمارية ، ومخططات الصهيونية المدعومة من قبل أحلافها الاستعماريين . ليغفر لنا الجميع إذا كنا قد أسأنا الفهم وقصدنا إحياء اللاسامية التي لم يعد ثمة مسوّغ لوجودها . فالإنسانية هي بحاجة ماسة إلى توسيع دوائر الأخوة العالمية والتصدي إلى المخاطر وكل ما يهدد أمن البشر جميعاً . وأخيراً أستسمح منكم أن أستعير هذه العبارة المأخوذة عن مكسيم رودنسون : أنا آسف ... لقد أسهبت كثيراً في كلامي ، ولكني كنت حريصاً على أي حال أن أكتب لكم وأقول كل ذلك[٤٨] ...

---

٤٨ ــ العبارة مأخوذة عن إحدى محاضرات السيد المفكر مكسيم رودنسون .

المراجع بالعربية

١ ــ من الأدب العبري
تأليف د . فؤاد حسنين علي .
منشورات الجامعة العربية .
٢ ــ مجلة الأقلام العراقية العدد التاسع ، حزيران عام ١٩٧٩ .
٣ ــ الأدب ما بين حربين (الصهيوني) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت .
٤ ــ د . عبد الوهاب المسيري : الإيديولوجية الصهيونية .
المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
٥ ــ شؤون عربية عدد خاص بفلسطين . سنة ١٩٨٤ .
٦ ــ ضرورة الفن أرنست فيشر ترجمة د . ميشال سليمان
المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ــ بيروت .

٧ ــ الشخصية الصهيونية في الرواية الانجليزية . تأليف د . هاني الراهب .

٨ ــ مجلة العربي العدد ٣٠٦ ــ ١٩٨٤ .

٩ ــ في الأدب الصهيوني غسان كنفاني ، دراسات فلسطينية ، مركز الأبحاث بيروت .

١٠ ــ الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي ، تأليف إشلي مونتاغو .

١١ ــ قضية إسرائيل والصهيونية السياسية ، تأليف روجيه غارودي .

١٢ ــ الاغتراب ريتشارد شاخت ، ترجمة كامل حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

١٣ ــ في المسألة اليهودية ، إسحق دويتشر ، ترجمة وضاح شرارة .

١٤ ــ الكتاب المقدس العهد القديم والجديد .

١٥ ــ كتاب التلمود ، عبد المنعم شميس .

١٦ ــ أزمة الفكر الصهيوني ، محمد ربيع المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

١٧ ــ عالم الفكر ، المجلد الرابع عشر ــ العدد الأول ــ أبريل ــ مايو ــ يونيو .

١٨ ــ مجلة العربي العدد ٣٠٦ مايو ١٩٨٤ .

١٩ ــ رسالة في اللاهوت والساسة ، باروك سبينوزا ، ترجمة د . حسن حنفي ، دار الطليعة بيروت .

٢٠ ــ الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية ، خالد القشطيني ، الدراسات العربية للنشر .

المراجع بالفرنسية

1 - La nouvelle Létturature Française - juin - No. 2841. Paris France.

2 - Revue Thomiste -Octobre - Decembre 1980. Paris France.

3 - Vladimir Lénine - œUVRES choisies. Edition - Muoscou - en.3 Volumes.

4 - La Penseé - Mai 1980. No. 212. Paris France.

5 - La Nouvelle Question Juive. Michel Trigano. Edition du Seuil. Paris France.

الفهرس

في الشعر العبري والصهيوني المعاصر / صالح العياري . ـــ ط. ١ . ـــ
دمشق : دار طلاس، ١٩٨٦ . ـــ ٢٥٤ ص. ؛ ١٧ سم .

١ ـــ ٨٩٢٫٤١٠٩ ع ي ا ف ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ العياري

مكتبة الأسد

ع ـــ ٨٢٧/ ٩/ ١٩٨٦

مطبعة العجلوني





